

فجوة الحوزة العلمية في النجف الاشرف

■ العلامة السيد محمد جعفر الحكيم
استاذ في الحوزة العلمية في النجف الاشرف



الخلاصة:

تناول البحث تاريخ بداية الحوزة العلمية في النجف ثم تقسيم تاريخ الفقه الى اربعة ادوار :
الاول : دور التأسيس ، ويراد به نزول النص القرآني وصدور السنة عن النبي وتدوينها ، وقد اشار البحث الى موقع اهل البيت (ع) كوارثين لعلوم النبوة والى دورهم في المحافظة على السنة النبوية والى ظهور الكتب الاربعة (الكافي للكليني ومن لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق والتهديب والاستبصار للشيخ الطوسي) بصفتها الكتب التي تحتوي على سنة النبي برواية اهل بيته (ع).
الثاني : دور التفريع ، وهو بداية عملية الاجتهاد . بمفهومها الواسع . المعتمدة على الاستقصاء والفحص ، وإعمال النظر وذكر البحث أهم الكتب الفقهية التي تعبر عن هذا الدور وهي كتابا (المقنع) و(الهداية) للصدوق (ع)، وكتاب (المقنعة) للشيخ المفيد (ع)، وكتاب (الجمل والعقود) في خصوص العبادات للشيخ الطوسي وكذا كتابه (الاقتصاد الهادي إلى الرشاد) وهو فيما يجب على العباد من أصول العقائد والعبادات الشرعية على وجه الاختصار ، وكتاب (النهاية: مجرد الفقه والفتاوي) للشيخ الطوسي أيضا ، وهو خاتمة هذا الدور ولعله خير ما يصلح لتمثيله أحسن تمثيل.

الثالث: دور النضج ، وقد استغرق سبعة قرون تقريبا (من القرن الخامس الهجري الى القرن الثاني عشر الهجري). وقد ذكر البحث اتضاح تميز فقهاء أهل البيت (ع) عن فقهاء العامة في هذا الدور بكونهم يتعاملون مع الصادر عن اهل البيت (ع) كأنه صادر عن النبي (ص) مع نبد القول بالقياس والاستحسان ونحوهما ، مما اشتهر العمل بها عند فقهاء العامة ثم ذكر الكتب التي اشتهرت في هذا الدور ، ويعتبر الباحث ان الفقه الامامي قد بلغ قمة النضج على يد العلامة الحلي ، ولم يغب ان يتحدث عن الفتح الفكري في ايران الذي تحقق على يده يوم تشيع الشاه خدابنده. ثم ذكر الكتب الفقهية التي ظهرت بعد العلامة الحلي من قبيل اللمعة الدمشقية للشهيد الاول وشرحها الموسوم بالروضة البهية للشهيد الثاني . ويعتبر الباحث ان هذا الدور قد انتهى بظهور الحركة الاخبارية و ظهور كتاب الحدائق الناطرة للشيخ البحراني ت ١١٨٦ هـ .

الرابع : دور الكمال ، ويبدأ من القرن الثاني عشر الهجري الى اليوم ، ويرى البحث ان شخصية الوحيد البهبهاني هي التي افتتحت هذا الدور ولازلنا فيه . ثم استعرض اهم الكتب الفقهية في هذا الدور وهي :
- كشف الغطاء تأليف الشيخ جعفر الشيرازي خضر الجناحي الحلي المتوفى عام (١٢٢٨ هـ).
- رياض المسائل في بيان الأحكام بالدلائل المعروف في الأوساط العلمية مختصرا بالرياض تأليف السيد علي الطباطبائي الحائري (١١٦١ - ١٢٣١ هـ).

- جواهر الكلام في شرح شرايع الإسلام تأليف الشيخ محمد حسن النجفي (ع) المتوفى عام (١٢٦٦ هـ).

- المكاسب للشيخ مرتضى الأنصاري (ع) (١٢١٤ - ١٢٨١ هـ) وقد يسمى أيضا بكتاب المتاجر.

- مستمك العروة الوثقى تأليف السيد محسن الطباطبائي الحكيم (ع) (١٣٠٦ . ١٣٩٠ هـ)، وهو شرح استدلال لكتاب (العروة الوثقى) للسيد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي (ع) المتوفى عام (١٣٢٧ هـ) .

اصل هذه الدراسة عن علم تطور الفقه في الحوزة العلمية النجفية على مدى عصورها ، منذ تأسيسها على يدي الشيخ الطوسي (ع) قبل زهاء ألف عام وحتى العصور الأخيرة ، قام بها العلامة السيد محمد جعفر الحكيم احد اساتذته بحث خارج الفقه والاصول في الحوزة العلمية في النجف وقد نشرها ضمن كتابه تطور الفقه والاصول في الحوزة النجفية .
ثم ارتأت هيئة التحرير ان تنشر القسم الخاص بتطور الفقه ، ورأت ان تعيد تحرير فصل دور التأسيس من البحث واختصاره لكثرة الافكار فيه وشكلت لجنة للنهوض بالعمل ، وقد حافظت اللجنة المشكلة على الفاظ المؤلف وافكاره الاساسية والتفصيلية ، كما حافظت على مصادر البحث التي اوردها المؤلف ، نعم اضافت ترجمات بعض الاعلام الذين وردت اسمائهم في الدراسة كما اضافت هامشا يتحدث عن خصائص طبعة وسائل الشريعة التي قامت بتحقيقها مؤسسة أهل البيت (ع) ، كما اضافت جملة من العبارات لتكون (مانشيتات) معبرة عن افكار البحث الاساسية .

تمهيد في بداية الحركة العلمية في النجف الأشرف

توجد ثلاث رؤى في تصوير بداية الحركة العلمية في النجف الاشرف :

الرؤية الأولى :

الحركة العلمية التي تعيشها حوزة العلم في النجف الاشرف لا يمكن بحسب القوانين الطبيعية أن تكون وليدة العصور المتأخرة ، بل لابد أن تكون لها جذور ضاربة في أعماق التاريخ وقد رجح بعض الأعلام^(١) أن تكون مدرسة النجف الاشرف امتدادا لمدرسة الكوفة التي ازدهرت إبان اتخاذها عاصمة للدولة الإسلامية من قبل الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) واستمرت على هذا المنوال وبقية رافدا أساسيا لسائر العلوم السائدة في القرنين (١) وهو الشيخ محمد حسين المظفر (ع) في كتابه الإمام الصادق (ع) .

الأول والثاني المهجرين لعدد كبير من الحواضر الإسلامية شرقا وغربا ونمت فيها وترعرعت البذرة المثمرة التي كان للإمام علي (ع) اليد الطولى في تهيئة الأرضية الصالحة لها ، وخاصة في علوم الآداب العربية والفقه الحديث والتفسير والقراءات ، ويشهد لذلك انتساب جمع غفير من نوابغ النحاة والشعراء والفقهاء والرواة والقراء والمفسرين إليها .

وكانت تضارع بغداد - بعد تأسيسها ، واتخاذ المنصور عاصمة للخلافة العباسية - في تلك العلوم وغيرها فنشأ فيها مراجع كبار في النحو واللغة والفقه وعلوم القرآن ، كابي الأسود الدؤلي^(٢) ،

(٢) أبو الأسود الدؤلي : ظالم بن عمر بن ظالم ، أول من أسس علم النحو حيث تلقاه من الإمام علي (ع) وكان من أصحابه شهد معه صفينا ، وكان من سادات التابعين ولي القضاء في البصرة عد من الفقهاء والدهاة والنحاة ، أول من نطق المصحف الكريم توفي سنة (٦٧ هـ) .

إن الشيخ الطوسي رحمته اختار النجف موضعاً لهجرته بعد أن وجد أن أرضها صالحة لنشر العلم بمن فيها من رجاله وحملته فصقل مواهبهم ووسع مداركهم بما كان يمتلك من مواهب متعددة في شتى مناحي الحياة العلمية السائدة في عصره، وأرسى لها قواعد متينة راسخة أعطت لها القابلية على الامتداد إلى العصور اللاحقة ومن ثم اعتبر بحق المؤسس والبناني لحوزة النجف الاشرف العلمية .



خصوصاً الموالين لأهل البيت عليهم السلام تبركا بقبر الإمام عليه السلام ، وابتعاداً عن مراكز السلطة وبطشها .

إلا أن الواقع التاريخي للنجف الاشرف كمدينة تصلح أن تكون مركزاً علمياً يأبى ذلك جداً . فإن كثيراً من الروايات التي تحدثت عن دفن الإمام عليه السلام فيها ذكرت أن قبره قد عفي أثره بوصيه منه عليه السلام ، كما ذكره الشيخ الكليني رحمته في الكافي . وتشهد لذلك ، بل تدل عليه الروايات التي نقلت لنا تكرر زيارة الأئمة عليهم السلام للقبر الشريف ، فإنها تضمنت كيفية معرفة القبر الشريف ، ووصفه بأنه بين الذكوات البيض ، فعن الحسن بن أحمد ومحمد بن مسلم : (قالا : مضينا إلى الحيرة فاستأذنا ودخلنا على أبي عبد الله الصادق عليه السلام ، فجلسنا إليه ، وسألناه عن قبر أمير المؤمنين عليه السلام فقال :

إذا خرجتم فجزتم الثوية والقائم المائل ، وصرتم من النجف على غلوة أو غلوتين ، رأيتم ذكوات بيضا ، بينها قبر قد جرفه السيل ، ذاك قبر أمير المؤمنين عليه السلام . قالوا : فغدونا من غد ، فجزنا الثوية والقائم المائل ، فإذا ذكوات بيضا ، فجزناها ، فإذا القبر كما وصف عليه السلام . ونحو ذلك مما يكشف عن عدم وجود حتى بناية صغيرة على القبر الشريف ، فكيف يا ترى تكون النجف بهذا الحال مدينة ومركزاً للعلم؟! .

هذا مع أن بعض المصادر ذكرت أن الإمام الصادق عليه السلام أذن لصاحبه صفوان الجمال رحمته بوضع دكة على القبر الشريف عليه السلام . وهي على تقدير صحتها فالأقرب أن تكون إبان وجود الإمام عليه السلام في العراق ، عندما استقدمه المنصور العباسي إلى الحيرة ، حوالي عام (١٤٠هـ) ، مما يكشف عن عدم تمدن العتبة الشريفة حتى ذلك الوقت . وذكرت مصادر أخرى أن

(١) ماضي النجف وحاضرها ج : ص : ٢١ . ويراجع للاستزادة الباب التاسع من كامل الزيارات ص : ٣٣ وما بعدها .

(٢) صفوان الجمال : صفوان بن مهران بن المغيرة الاسدي الكاهلي بالولاء سكن بالكوفة وكان جمالا ، وكان من شيوخ اصحاب الإمام الصادق عليه السلام وخاصته وأيضا من اصحاب الإمام الكاظم عليه السلام (وكان حيا بعد ١٧٠هـ) .

(٣) الإمام الصادق للمظفر ص : ١٣٩ .

حيان عليه السلام ^(١١) ، وبعض أئمة المذاهب وأساتذتهم كإبراهيم النخعي رحمته مؤسس الرأي وتلميذه أبي حنيفة النعمان بن ثابت عليه السلام ^(١٢) وسفيان الثوري رحمته ^(١٣) وغيرهم .

وفي حديث الحسن بن علي الوشا : (أدركت في هذا المسجد - يعني مسجد الكوفة - تسعمائة شيخ كل يقول حدثني جعفر بن محمد عليه السلام ^(١٤) .

وتروي المصادر التاريخية لنا استقدام هارون الرشيد الكسائي من الكوفة لتعليم ولديه الأمين والمأمون وكيف أنه أشرف يوما عليه وهو لا يراه فقام الكسائي ليلبس نعله ، فابتدر إليها الأمين والمأمون ، فوضعاها بين يديه فقبل رأسيهما ثم اقسما عليهما أن لا يعاودا . فلما جلس الرشيد مجلسه ، قال : أي الناس أكرم خادما؟ قالوا : أمير المؤمنين قال : بل الكسائي ، بخدمه الأمين والمأمون ، وهما وليا عهده ، ثم حدثهم الحديث ^(١٥) .

ويمكن تأييدا لذلك أن يؤثر بعض رواد العلم النجف الاشرف على غيرها من الحواضر الإسلامية ، فهاجروا إليها بعد نزوب العلم في الكوفة ، بسبب اضطهاد الأمويين والعباسيين للعلماء

روى عنها الشيء الكثير من علومها ورد في مدحه في روايات كثيرة عن أهل البيت عليهم السلام وهو ممن اجمعت الشيعة على تصديقه وتصحيح ماصح عنه ، وله كتاب يسمى الأربعمائة في أبواب الحلال والحرام . توفي سنة ١٥٠هـ .

(١٢) جابر بن حيان : بن عبد الله الطوسي المعروف بالصوفي من مفاخر علماء الشيعة الإمامية ، ومن مشاهير علماء الفلسفة والحكمة ، والطب ، والرياضيات ، والفلك والمنطق ، والنجوم وكان أديبا زاهدا ، تلمذ على الإمام الصادق عليه السلام .

(١٣) إبراهيم النخعي : إبراهيم بن يزيد بن الاسود فقيه تابعي كوفي احد الأئمة المعروفين بالفقه توفي عام (٩٦هـ) .

(١٤) أبو حنيفة : -النعمان بن ثابت بن زوطي بن ماه مولى تيم الله بن ثعلبة الكوفي أبو حنيفة ولد سنة (٨٠هـ) احد الأئمة الأربعة عند أهل السنة وصاحب الرأي والقياس والفتاوى المعروفة في الفقه . أصله من فارس . توفي سنة (١٥٠هـ) .

(١٥) سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي ولد عام (٩٧هـ) وكان محدثا فقيها وقد عد من اصحاب الرأي .

(١٦) رجال النجاشي ص ٣١ .

(١٧) الكني والألقاب ص ٩٧ .

والكسائي ^(١٦) وعاصم بن أبي النجود الكوفي ^(١٧) وهما من القراء السبعة .

وخلف الأحمر ^(١٨) وحامد الراوية ^(١٩) وهشام الكلبي النسابة ^(٢٠) والشاعر الكميث ^(٢١) ، ودعبل الخزاعي ^(٢٢) ، وأبي نواس ^(٢٣) ، وسعيد بن جبير ^(٢٤) وجابر الجعفي ^(٢٥) ، وأبان بن تغلب ، ومحمد بن مسلم الثقفي ^(٢٦) ، وجابر بن

(١) الكسائي : علي بن حمزة بن عبد الله الأسدي الولاء الكوفي ، إمام اللغة والنحو والقراءة ، كان من أهل الكوفة ولد فيها قرأ النحو بعد الكبر ، مؤدب الرشيد العباسي وابنه الأمين له تصانيف منه (معاني القرآن) و(المصادر) توفي عن سبعين عاما .

(٢) عاصم بن أبي النجود الكوفي : الأسدي بالولاء أحد القراء السبعة ، تابعي من أهل الكوفة ، كان حجة في القراءات صدوقا في الحديث قرأ على أبي عبد الله السلمي عن علي عليه السلام ، توفي سنة (١٢٧هـ) .

(٣) خلف الأحمر : يكنى أبا محرز ، برع في الشعر والأدب ، قيل هو معلم الأصمعي ، أحد رواة الغريب والشعر وتقاده ، تلمذ عليه أبو نواس ، من آثاره (جبال العرب) توفي سنة (١٨٠هـ) .

(٤) حماد الراوية : ميسر بن المبارك بن عبيد الديلمي ، الكوفي من اعلم الناس بأيام العرب واشعارها واخبارها وانسابها ولغاتها كانت ملوك بني امية تقدمهم فيفد عليهم وينال منهم توفي سنة (١٥٥هـ) .

(٥) هشام بن الكلبي النسابة : هو هشام بن السائب الكلبي نشأ في الكوفة ، وكان عالما بأخبار العرب وأيامها ومثالبها ووقائعها ، أخذ عن أبيه .

(٦) الكميث بن زيد الأسدي : الكوفي ، شاعر عارف بأداب العرب ولغاتها وأخبارها وانسابها ، شعبي ، كان يمدح أهل البيت عليهم السلام له قصائد تسمى الهاشميات وهي من جيد شعره توفي سنة (١٢٦هـ) .

(٧) دعبل بن علي الخزاعي : عربي من اليمن ، أصله من الكوفة ، كثير المدح لأهل البيت عليهم السلام ومن شعراتهم ، توفي سنة (٢٤٦هـ) .

(٨) أبو نواس : الحسن بن هانئ بن عبد الأول المعروف بأبي نواس ولد سنة (١٤٥هـ) ، أديبا شاعر ولد بالأهواز ، ونشأ بالبصرة ، ورحل إلى بغداد إتصل بالخلفاء من بني العباس ومدح بعضهم ، توفي سنة (١٩٦هـ) .

(٩) سعيد بن جبير (٤٥ - ٩٥هـ) ابن هشام ، الحافظ القارئ المفسر الشهيد عد من اصحاب علي بن الحسين عليهم السلام ولد سنة ٤٥هـ وكان فقيها ورعا عابدا ، خرج مع القراء على الحجاج ، قتله الحجاج سنة ٩٥هـ ومات الحجاج بعده بأيام .

(١٠) جابر بن يزيد بن الحارث الجعفي ولد سنة ١٢٨هـ كان احد اوعية العلم ، ومن اجلة فقهاء الشيعة ، من اصحاب الباقر والصادق عليهم السلام توفي سنة ١٢٧هـ .

(١١) محمد بن مسلم : بن رباح الثقفي الطائفي الفقيه أبو جعفر الكوفي ولد سنة ٨٠هـ كان أحد أئمة العلم في الإسلام وأحد وجوه الشيعة في الكوفة ، اختص بالامامين ابي جعفر الباقر وأبي عبد الله الصادق عليهم السلام

داود بن علي بن عبد الله بن العباس ^(١) المتوفى عام (١٣٣هـ) هو أول من اكتشف قبر الإمام علي عليه السلام من غير آل الكرام عليهم السلام في النجف ، وعمل عليه صندوقا من الخشب ، وقد انطمس أثره ، ولم يظهر له وجود إلا في عصر هارون الرشيد ، حدود عام (١٧٠هـ) لقضية وقعت معه ، عند احتفاء الأطباء بالقبر الشريف ، وتحامي كلاب الصيد عن اقتحامها ومهاجمتها وبعد عام (١٨٠هـ) جاوره الناس كما عن كتاب نزهة القلوب للمستوفي ^(٢) . أضف إلى ذلك أنه لم ينقل في كتب التاريخ المتداولة اتخاذ أي من علماء الكوفة المعروفين النجف الاشرف مهجرا علميا له ، حتى يكون ذلك امتدادا لمدرسة الكوفة العلمية ، إلا أن يراد منه كون النجف امتدادا لمدرسة الكوفة في النزعة العقلانية التي اشتهرت بها الكوفة . لكنه لا يعد امتدادا تاريخيا ، كما نحن بصدد البحث عنه .

نعم لا يبعد أن يلتقي عالم أو أكثر في مواسم زيارة قبر الإمام عليه السلام ، فيأخذ بعضهم عن بعض شيئا من الفقه ، أو الحديث . إلا أنه لا يرقى لإثبات دعوى وجود مركز علمي في النجف الاشرف في القرن الثاني للهجرة فضلا عن القرن الأول .

الرؤية الثانية :

ويقابل تلك الرؤية دعوى انعدام الحياة العلمية في النجف الاشرف قبل هجرة الشيخ الطوسي رحمته إليها من بغداد ، إثر فتنة السلاجقة فيها عام (٤٤٨هـ) حيث كبست داره بالكرخ ، وأحرقت كتبه ، وكرسى الكلام الذي خصه به الخليفة العباسي (القائم بأمر الله) ، اذ كان درسه الشريف يجمع علماء من شتى طوائف المسلمين . وبعد استقرار الشيخ عليه السلام في النجف الاشرف ، بدأ بتأسيس حوزة علمية فنية فيها ، وأخذ يفد إليها عشاق العلم ، نظرا لمكانته العلمية المرموقة في نفوس علماء ذلك العصر ، ولاسيما الموالين لأهل البيت عليهم السلام .

(٤) وهو اخو مؤسس الدولة العباسية ابو العباس السفاح ولقبه ابو سليمان ولاء السفاح امارة مكة والمدينة والطائف عام (١٣٢هـ) وتوفي عام (١٣٣هـ) .

(٥) ماضي النجف وحاضرها ج : ص : ٤١ .

مرّ الفقه الإمامي بأربعة أدوار رئيسة : دور التأسيس ، ودور التفريع ، ودور النضج ، ودور الكمال .

الرؤية الثالثة :

إلا ان التأمل في سير القضايا التاريخية الطبيعية يأبى ذلك جدا فان الشيخ لم يؤسس حوزته العلمية في أرض قاحلة من العلم وأهله ، ولمجرد كونها مقدسة لضمها مرقد أمير المؤمنين عليه السلام .

ويشهد لذلك ما ورد في عدة مصادر من أن عضد الدولة البويهني حين زيارته للنجف الاشراف عام (٣٧١هـ) أي قبل هجرة الشيخ بحوالي ثمانين عاما وزع مبالغ طائلة على سكان العتبة المقدسة ، بمن فيهم الفقهاء . فعن كتاب (فرحة الغري) للسيد ابن طاووس^(١) أنه : (طرح في الصندوق دراهم ، أصاب كل واحد منهم احد [واحد . ظ] وعشرون درهما ، وكان عدد العلويين ألفا وسبعمائة وقرق على المجاورين وغيرهم خمسمائة ألف درهم وعلى الفقهاء ثلاثة آلاف درهم)^(٢) .

وهو الذي بنى قبل ذلك المرقد المظهر بناء فخما - حسب مقياس ذلك العصر - حيث ستر حيطانه بخشب الساج المنقوش وبني أسواقا ومدارس وخوانق معمورة بأحسن عمارة وكسى حيطانها بالقاشاني كما نقل عن كتاب (رحلة ابن بطوطة)^(٣) .

إن عنوان (الفقهاء) إن لم يختص بالمجتهدين ، فلا أقل من شموله لهم ولطلاب الفقه ودارسيه الذين هم أدنى مرتبة علمية منهم ، وهو عبارة أخرى عن مصطلح الحوزة العلمية فإنها تشمل الأساتذة من مجتهدين وغيرهم وباقي طلابهم .

أضف إلى ذلك وجود بعض الأسر العلمية في النجف الاشراف حوالي القرن الرابع الهجري ، عرفت في ذلك العصر ، وبقيت شهرتها إلى أواخر القرن السادس ، وأعرقتها شهرة أسرة آل شهریار ، وهي من أسر العلم البعيدة الذكر ، القديمة العهد وكانت يبدها أيضا سدانة المرقد العلوي المظهر^(٤) .

(١) غياث الدين عبد الكريم بن احمد بن طاووس الزاهد العابد ولد عام (٦٤٨هـ) وتوفي عام (٦٩٣هـ) من أبرز مصنفاته فرحة الغري .

(٢) فرحة الغري ص ١١٤ .

(٣) معرب جمع (خانقاه) والظاهر ان المراد بها ما يشبه تكايا الصوفية . ج ١ ص ١٠٩ .

(٤) ماضي النجف وحاضرها ج ٢ ص ٤٢٢ .

بل إن كتب الرجال والتراجم ذكرت عددا من العلماء منسوبين للنجف قبل هجرة الشيخ إليها ، منهم شرف الدين بن علي النجفي ، الذي وصفه الشيخ الطوسي بأنه كان صالحا فاضلا وعبد الله بن احمد بن شهریار (أبو طاهر) كان معاصرا للشيخ المفيد عليه السلام ويروي عنه النجاشي^(٥) وأبو جعفر محمد بن جرير الطبري في كتاب الإمامة . واحمد بن شهریار (أبو نصر) الخازن للحضرة العلوية ، من حملة العلم ، ورجال الحديث المعاصرين للشيخ الطوسي^(٦) . وغيرهم ممن يعثر عليهم المنتبج في كتب الرجال والتراجم .

وصفوة القول : أن الشيخ الطوسي عليه السلام حظ رحاله في النجف الاشراف بعد أن وجد أن أرضها صالحة لنشر العلم بمن فيها من رجاله وحملته فصقل مواهبهم ووسع مداركهم بما كان يمتلك من مواهب متعددة في شتى مناحي الحياة العلمية السائدة في عصره ، وأرسى لها قواعد متينة راسخة أعطت لها القابلية على الامتداد إلى العصور اللاحقة ومن ثم اعتبر بحق المؤسس والباقي لحوزة النجف الاشراف العلمية كمرکز جذب لطلاب العلوم العربية والإسلامية من سائر أرجاء المعمورة .

الأدوار التي مرّ بها الفقه الإمامي

يمكن أن يقال إن الفقه الإمامي مرّ بأدوار أربعة رئيسة يتميز بعضها من غيره بخصائص وسمات تكاد تكون حدا فاصلا عن باقي الأدوار وإن كان ذلك لا يخلو عن حالات استثنائية قد يشترك فيها بعض الأدوار مع غيره في بعض الخصائص شأن أكثر العلوم الإنسانية التي تعتمد الفكر والاستنتاج إلا أنه من ناحية عامة لا يخرج عن هذه الأدوار الأربعة وهي : دور التأسيس ، ودور التفريع ، ودور النضج ، ودور التكامل .

(٥) هو احمد بن علي بن احمد النجاشي وكنيته ابو الحسين ولد عام (٣٧٢هـ) في الكوفة وكان ابوه من كبار محدثي الشيعة ومن أهم مصنفاته (فهرست اسماء المصنفين) او (رجال النجاشي) والذي مازال من أهم مصادر الرجال عن الامامية توفي عام (٤٥٠هـ) في سامراء .

(٦) ماضي النجف وحاضرها ج ٢ ص ٤٠٣ .



الدور الأول : دور التأسيس

وهو يبدأ من أوائل عصر الرسالة ، متمثلا بالقرآن الكريم وبمدونات^(١) أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام ، كما يظهر من أدنى ملاحظة لروايات أهل البيت عليهم السلام ويكفي شاهدا على ذلك ما رواه الشيخ الكليني عليه السلام بسنده عن أبي بصير : (قال : دخلت على أبي عبد الله عليه السلام فقلت جعلت فداك ، إني أسالك عن مسألة ، ها هنا أحد يسمع كلامي؟ قال : فرفع أبو عبد الله عليه السلام سترًا بينه وبين بيت آخر ، فاطلع فيه ، ثم قال : يا أبا محمد سل عما بدا لك قال : قلت : جعلت فداك ، إن شيعتك يتحدثون أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علم عليا عليه السلام بابا يفتح له منه ألف زيادة ألف باب قال : قلت : هذا والله العلم . قال : فمكث في الأرض ساعة ثم قال : إنه لعلم ، وما هو بذاك . قال : ثم قال يا أبا محمد وإن عندنا الجامعة ، وما يدرهم ما الجامعة؟ قال قلت جعلت فداك وما الجامعة؟ قال : صحيفة طولها سبعون ذراعا بذراع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وإملائه من فلق فيه ، وخط علي عليه السلام بيمينه ، فيها كل حلال وحرام ، وكل شيء يحتاج الناس إليه حتى ارش الخدش^(٢) .

وكذلك مدونات بعض رواد الصحابة ومسموعاتهم عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأمير المؤمنين عليه السلام ومن جاء بعدهما من أئمة الهدى من أهل البيت (صلوات الله عليهم أجمعين)

ومن ثم وردت مدائح في حق جملة من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم تعظيم مراتب عالية من الوثاقة والاعتماد ، لا ينالها إلا ذو حظ عظيم فمن ذلك ما رواه الكشي بسنده عن أبي عبد الله عليه السلام : (قال : رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن الله أمرني بحب أربعة ، قالوا : ومن هم يا رسول الله؟ قال : علي ابن أبي طالب عليه السلام ، والمقداد بن

(١) هذه المدونات شكلت إرثا الهيا للائمة عليهم السلام كما في قوله تعالى ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْ ذَكَرَ اللَّهُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ فاطر/٣٢ . وقد وردت الروايات عنهم عليهم السلام ان السابق بالخيرات هو الامام عليه السلام .

(٢) أصول الكافي ج ١ ص ٢٣٩ .

الأسود ، وأبو ذر الغفاري ، وسلمان الفارسي^(٣) وفي حديث آخر عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام : (إن سلمان أدرك علم الأول وعلم الآخر ، مفسرا بعلم النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وعلم علي عليه السلام) .

ومنها : ما رواه العامة والخاصة مستفيضا في حق أبي ذر عليه السلام بالخصوص من قوله عليه السلام : (ما أطلت الخضراء ، ولا أقلت الغبراء على ذي لهجة اصدق من أبي ذر)^(٤) وما ورد عنه عليه السلام في حق عمار بن ياسر عليه السلام مستفيضا ، بل متواترا : (ما لهم ولعمار ، يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار)^(٥) . وهو الذي كان العلامة الفارقة بين الحق والباطل ، لقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : (تقتله الفئة الباغية)^(٦) . وقد قتله أهل الشام بقيادة معاوية ابن أبي سفيان في واقعة صفين عندما كان يجاهد في سبيل الله تعالى في جيش الإمام علي عليه السلام ومثله ما ورد عنه عليه السلام في حق أويس القرني : (٨) (أويس القرني خير التابعين بإحسان)^(٩) ، وقد استشهد أيضا مع الإمام عليه السلام في صفين . إلى غير ذلك مما أثر عن أعلام الصحابة والتابعين لهم بإحسان عليهم السلام .

واستمر المسلمون على هذا المنوال في كيفية أخذ الأحكام الشرعية جارين على السنن العقلانية في رجوع الجاهل إلى العالم ، كما نطق به التنزيل المجيد : ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾^(١٠) طيلة حياة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وهذه المدة تعد بحق غرة في جبين التاريخ الإسلامي ، فخرج الناس بإتباعهم للدين الإسلامي الحنيف من الظلمات إلى النور حاملين مشعل الهداية لإنقاذ البشرية من وهدة الضلال .

(٣) رجال الكشي ص : ١٦ .

(٤) رجال الكشي ص : ٢١ .

(٥) رجال الكشي ص : ٢٨ .

(٦) رجال الكشي ص : ٣٢ .

(٧) رجال الكشي ص ٣٢ .

(٨) أويس القرني بن عامر المرادي ، من اصحاب امير المؤمنين عليه السلام احد الزهاد ومشاهير الابدال ، شهد له النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم بالجنة استشهد مع امير المؤمنين عليه السلام في معركة صفين .

(٩) رجال الكشي ص ٤٣ .

(١٠) سورة التوبة الآية ١٢٢ .

يشمل دور التأسيس عصر الرسالة المتمثل بنزول القرآن الكريم وبيان السنة النبوية المطهرة وتدوينها على يد علي عليه السلام باملاء النبي وعصر الامامة المتمثل بحركة الأئمة عليهم السلام بتبليغ السنة النبوية وتدوينها من قبل اصحابهم في كتب واصول وعصر ظهور الكتب الاربعة التي جمع مؤلفوها احاديثها من تلك الكتب والاصول .

النكبة التي ابتلى بها المسلمون بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله

وما أن انتقل النبي الأعظم صلى الله عليه وآله إلى الرفيق الأعلى ، إلى حظيرة القدس ، حتى بدأت فترة مظلمة تركت الناس يخبطون خبط عشواء ضاعت فيها الأحكام وكثر الوضع والاختلاق وفق ما تقتضيه الرغبات والمصالح الشخصية .

نص يصور منشأ اختلاف الأحاديث

ولعل أحسن ما يصور هذه الحقبة المريرة من تاريخ الفقه الإسلامي ما رواه ثقة الإسلام في الكافي ، بسنده عن سليم بن قيس الهلالي رضي الله عنه : قال : قلت لأمر المؤمنين عليه السلام إني سمعت من سلمان والمقداد وأبي ذر شيئا من تفسير القرآن ، وأحاديث عن نبي الله صلى الله عليه وآله غير ما في أيدي الناس ثم سمعت منك تصديق ما سمعت منهم ورأيت في أيدي الناس كثيراً من تفسير القرآن ومن الأحاديث عن نبي الله صلى الله عليه وآله أنتم تخالفونهم فيها وترعمون أن ذلك كله باطل أفترى الناس يكذبون على رسول الله صلى الله عليه وآله متعمدين؟ ويفسرون القرآن بأرائهم؟ قال : فاقبل علي ، فقال : سألت فافهم الجواب :

إن في أيدي الناس حقا وباطلا ، وصدقا وكذبا ، وناسخا ومنسوخا ، وعاما وخاصا ، ومحكما ومتشابهها ، وحقا ووهما . وقد كُذِبَ على رسول الله صلى الله عليه وآله على عهده ، حتى قام خطيبا ، فقال : أيها الناس ، قد كثرت عليّ الكذابة ، فمن كذب عليّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار ، ثم كُذِبَ عليه من بعده وإنما أتاكم الحديث من أربعة ليس لهم خامس : رجل منافق يظهر الإيمان متصنع بالإسلام لا يتأثم ولا يتحرج أن يكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله متعمدا فلو علم الناس أنه منافق كذاب لم يقبلوا منه ولم يصدقوه ولكنهم قالوا : هذا قد صحب رسول الله صلى الله عليه وآله ورآه وسمع منه وأخذوا عنه . وهم لا يعرفون حاله وقد أخبره الله عن المنافقين بما أخبره ووصفهم بما وصفهم فقال عز وجل : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ ﴾ ثم بقوا بعده فتقربوا إلى

أئمة الضلال والدعاة إلى النار بالزور ، والكذب ، والبهتان . فولوهم الأعمال وحملوهم على رقاب الناس بالزور والكذب والبهتان وإنما الناس مع الملوك والدنيا إلا من عصم الله فهذا أحد الأربعة .

ورجل سمع من رسول الله صلى الله عليه وآله شيئا لم يحمله على وجهه ، ووهم فيه ، ولم يتعمد كذبا ، فهو في يده يقول به ويعمل به ويرويه فيقول : أنا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله فلو علم المسلمون أنه وهم لم يقبلوه ولو علم أنه وهم لرفضه .

ورجل ثالث سمع من رسول الله صلى الله عليه وآله شيئا أمر به ثم نهى عنه ، وهو لا يعلم أو سمعه ينهى عن شيء ثم أمر به وهو لا يعلم فحفظ منسوخه ولم يحفظ الناسخ . ولو علم أنه منسوخ لرفضه ولو علم المسلمون إذ سمعوه منه أنه منسوخ لرفضوه .

وآخر رابع لم يكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله مبغض للكذب خوفا من الله وتعظيما لرسول الله صلى الله عليه وآله لم ينسه ، بل حفظ ما سمع على وجهه ، فجاء به كما سمع ، ولم يزد فيه ، ولم ينقص منه . وعلم الناسخ من المنسوخ فعمل بالناسخ ورفض المنسوخ فان أمر النبي صلى الله عليه وآله مثل القرآن ناسخ ومنسوخ وخاص وعام ومحكم ومتشابه قد كان يكون من رسول الله صلى الله عليه وآله الكلام له وجهان : كلام عام وكلام خاص مثل القرآن قال الله عز وجل في كتابه : ﴿ وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ فيشتبه على من لم يعرف ، ولم يدر ما عني الله به ورسوله صلى الله عليه وآله .

وليس كل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله كان يسأله عن الشيء فيفهم ، وكان منهم من يسأله ولا يستفهمه حتى أن كانوا ليحبون أن يجيء الأعرابي والطارئ فيسأل رسول الله حتى يسمعوها وقد كنت أدخل على رسول الله صلى الله عليه وآله كل يوم وكل ليلة دخلت لم يصنع ذلك بأحد من الناس غيري فرجما كان في بيتي يأتيني رسول الله صلى الله عليه وآله أكثر ذلك في بيتي وكنت إذا دخلت عليه بعض منازل خلا بي وأقام عني نساءه فلا يبقى عنده غيري وإذا آتاني للخلوة معي في منزلي لم تقم عني فاطمة ولا أحد من بنيه وكنت إذا سألته أجابني وإذا سكت



عنه نفدت مسائلي ابتدائي .

فما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله آية من القرآن إلا أقرانيها ، واملأها عليّ فكتبتها بخطي ، وعلمني تأويلها وتفسيرها ، وناسخها ومنسوخها ، ومحكمها ومتشابهها وخاصها وعامها ودعا الله أن يعطيني فهمها وحفظها فما نسيت آية من كتاب الله ولا علما أملاه عليّ وكتبته منذ دعا الله لي بما دعا وما ترك شيئا علمه الله من حلال ولا حرام ولا أمر ولا نهى كان أو يكون ولا كتاب منزل على أحد من قبله من طاعة أو معصية إلا أعلمنيته وحفظته فلم انس حرفا واحدا ثم وضع يده على صدري ودعا الله لي أن يملأ قلبي علما وفهما وحكما ونورا فقلت : يا نبي الله باي أنت وأمي منذ دعوت الله لي بما دعوت لم انس شيئا ولم يفتني شيئا لم اكتبه أفنتخوف عليّ النسيان فيما بعد؟ فقال : لا لست أتخوف عليك النسيان والجهل^(١) .

وراثة أئمة الهدى عليهم السلام للنبي صلى الله عليه وآله

قد ثبت عندنا - بما لا يقبل الشك - أن أولى الناس بالنبي صلى الله عليه وآله هو الإمام علي عليه السلام وهو العالم المحيط بكل ما جاء به صلى الله عليه وآله وأن أبناءه الحسن والحسين - سيدي شباب أهل الجنة - والتسعة الطاهرين من ذرية الحسين عليه السلام هم الوراث الحقيقيون لعلوم جدهم النبي صلى الله عليه وآله عن طريق أبيهم علي عليه السلام سيد الأئمة ، وقد وجب أن يكونوا - والحال هذه - مؤئلا الأول والأخير - بضميمة ما ثبت عن ثقة أصحاب النبي صلى الله عليه وآله - في معرفة الأحكام الشرعية .

وهكذا استمر آل النبي صلى الله عليه وآله الكرام (صلوات الله عليهم أجمعين) بعد انتقاله صلى الله عليه وآله إلى الرفيق الأعلى إلى جواره ربه الكريم في حظيرة القدس ، في القيام بوظيفته الأساسية بأحسن صورة ما وسعهم ذلك؛ فكانوا يجيبون السائل ، ويفتون المستفتي ، وبيتدئون من يرونه أهلا لحمل العلم بالبيان

(١) الغدير ج : ٦ ص ٢٩٠ - ٢٩٧ .

تفضلا منهم وكرما ، معرفة منهم بأحوال الرجال وقدراتهم ، مراعين - كالنبي صلى الله عليه وآله - مقتضيات الحال ، والظروف العامة والمخاصة . ويدفعون عن الدين الحنيف أباطيل الزنادقة ، وشبهات أهل الضلال ، وينفون عنه البدع . وقد شحنت كتب السير والأحاديث من مواقفهم الجليلة تلك ، ولولا ذلك لكان الدين الإسلامي والقرآن الكريم هباءً منثورا كباقي الأديان والكتب السماوية ، التي عبثت بها أيدي المنحرفين وأصحاب الأهواء والمطامع من حكام جائرين عن القصد وغيرهم .

جهاد الأئمة عليهم السلام في نشر الأحكام

ومع ذلك فقد أثر عن أهل بيت الرحمة وأبواب نجات الأمة الشيء الكثير من العلوم ، ولاسيما الفقه ، وكان لكل واحد منهم صفة من الأصحاب - تكثر أو تقل تبعا للظروف المحيطة بهم - اختص كل واحد منهم بأصل أو كتاب أو أكثر ، دون ما فيه ما رواه عن عاصره من المعصومين عليهم السلام ، وإن كان ما نقل عن الإمامين الباقر (محمد بن علي بن الحسين) وولده الصادق (جعفر بن محمد) أكثر مما نقل عن غيرهما من آباؤهما أو أبنائهما (عليهما السلام) ، لوجود فسحة من المجال لم تتح لغيرهما من المعصومين عليهم السلام .

أصحاب الأئمة :

ومن ثم اشتهر جماعة أعيان الأصحاب وأوائل حملة الفقه والحديث في هذه الفترة المهمة ، كانت لهم الريادة في تثبيت دعائم الفقه الإمامي الشيعي على مر العصور المتعاقبة ، كأبي حمزة الثمالي^(٢) ، وجابر الجعفي^(٣) ، وأبان بن تغلب ، وبني

(٢) أبو حمزة الثمالي ثابت بن أبي صفية دينار ، من كبار علماء عصره في الفقه والحديث وعلوم اللغة وغيرها اخذ العلم عن الأئمة الأربعة عليهم السلام زين العابدين والباقر والصادق والكاظم ، وكان مقربا عندهم وهو من خيار رجال الشيعة ، ومعتمد عليهم في الرواية والحديث ووقع في اسانيد كثير من الروايات بلغت أكثر من ثلاثمائة وواحد وستين موردا روى له الترمذي والنسائي ، الف كتب منها كتاب النوادر وكتاب تفسير القرآن توفي سنة ١٥٠ هـ .

(٣) جابر بن يزيد بن الحارث الجعفي : من كبار علماء المسلمين واحد اوعية العلم ، ومن اجلة فقهاء الشيعة ، من اصحاب الباقر والصادق عليهم السلام توفي سنة ١٢٧ هـ .

قال علي عليه السلام: ... فما نزلت على رسول الله ﷺ آية من القرآن إلا أقرانيها ، واملاها علي فكتبتها بخطي ، وعلمني تأويلها وتفسيرها ، وناسخها ومنسوخها ، ومحكمها ومتشابهها وخاصها وعامها ودعا الله أن يعطيني فهمها وحفظها فما نسيت آية من كتاب الله ولا علما أملاه علي وكتبته .



استقلال الأئمة عليهم السلام وأصحابهم في الفقه

اهتم الإمامان الصادقان (عليهما السلام) ومن جاء بعدهما من الأئمة عليهم السلام بتأكيد استقلاليتهم وأصحابهم في الفقه والحديث عن باقي حملتهم من المسلمين الذين لم ينتهوا علومهم من منابعها الصافية الأصيلة كما جاء بها النبي ﷺ فمن ذلك ما رواه ابن أبي عمير عن ابان بن تغلب : (قال : قال لي أبو عبد الله عليه السلام جالس أهل المدينة ، فإني أحب ان يرى في شعيتي مثلك)^(١) وما رواه النجاشي في ترجمة ابان أيضا ، أن الإمام أبا جعفر الباقر عليه السلام قال له : (اجلس في مسجد المدينة وافت الناس فإني أحب أن يرى في شعيتي مثلك)^(٢) وما رواه الكشي في رجاله من أن الإمام الصادق عليه السلام قال لعبد الرحمن بن الحجاج : (يا عبد الرحمن : كلم أهل المدينة ، فإني أحب أن يرى في رجال الشيعة مثلك و حديث حماد : (كان أبو الحسن عليه السلام يعني الإمام الكاظم عليه السلام - يأمر محمد بن حكيم أن يجالس أهل المدينة في مسجد رسول الله ﷺ ، وأن يكلمهم ويخاصمهم) .

وفي حديث معاذ بن مسلم النحوي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام : (قال : بلغني أنك تقعد في الجامع فتفتي الناس . قلت : نعم . وأردت أن أسالك عن ذلك قبل أن أخرج ، إني أقعد في المسجد فيجيء الرجل فيسألني عن الشيء ، فإذا عرفته بالخلاف عليكم أخبرته بما يفعلون ويحيىء الرجل اعرفه بمودتكم وحبكم ، فاخبره بما جاء عنكم . ويحيىء الرجل لا اعرفه ، ولا ادري من هو ، فأقول : جاء عن فلان كذا ، وكذا ، وجاء عن فلان كذا ، فادخل قولكم فيما بين ذلك فقال لي : اصنع كذا ، فإني كذا اصنع)^(٣)

وأوضح من ذلك ما في مقبولة عمر بن حنظلة (قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن رجلين من أصحابنا بينهما منازعة في دين أو ميراث ، فتحاكما إلى السلطان وإلى القضاة ، أيجل ذلك؟ قال : من تحاكم إليهم في حق أو باطل فإنما تحاكم إلى الطاغوت

(١) رجال الكشي ص : ٢٨٠

(٢) رجال الكشي ص : ٨

(٣) الوسائل ج : ١٨ ص : ١٠٨

قراءته له : (أترى هؤلاء مثل هذا)^(٤) .

مدائح الأئمة عليهم السلام لأعاضه الأصحاب

ومن المدائح المهمة الصادرة عن الأئمة في حق بعض إجلاء أصحابهم نذكر ما يلي تمثيلا ، لا حصرا :

قول أبي جعفر الباقر عليه السلام لابن ميمون القداح : (يا ابن الميمون كم انتم بمكة؟ قلت : نحن أربعة قال : أما أنكم نور في ظلمات الأرض)^(٥) ، وقول أبي عبد الله الصادق عليه السلام : (ما أجد أحد أحيا ذكرنا وأحاديث أبي الا زرار ، وأبو بصير (لبث المرادي) ، ومحمد بن مسلم ، وبريد بن معاوية العجلي . ولولا هؤلاء ما كان أحد يستنبط هذا ، هؤلاء حفاظ الدين ، وأمناء أبي علي حلال الله وحرامه ، وهم السابقون إلينا في الآخرة)^(٦) .

وفي حديث آخر عنه عليه السلام في حقهم أيضا : (كان أبي - يعني : الإمام الباقر عليه السلام - أثنتمهم على حلال الله وحرامه ، وكانوا عبية علمه وكذلك اليوم هم عندي ، هم مستودع سري ، أصحاب أبي عليه السلام حقا ، إذا أراد الله بأهل الأرض سوءا صرف بهم عنهم السوء هم نجوم شعيتي أحياء وأمواتا ، يحيون ذكر أبي ، بهم يكشف الله كل بدعة ، ينفون عن هذا الدين انتحال المبطلين ، وتأويل الغالين)^(٧) .

ومثله حديث جميل بن دراج قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : [(بشر المخبتين بالجنته (وذكر أسماءهم) أربعة نجباء ، أمناء الله على حاله وحرامه . لولا هؤلاء انقطعت آثار النبوة واندروست)] . و حديث مسلم بن أبي حية : قال : كنت عند أبي عبد الله عليه السلام في خدمته ، فلما أردت ان أفارقه ودعته ، وقلت : أحب أن تزودني . فقال : (أنت ابان بن تغلب ، فإنه قد سمع مني حديثا كثيرا ، فما رواه لك فاروه عني)^(٨) .

(٨) رجال النجاشي ص : ١٧١

(٩) رجال النجاشي ص : ٢١٢

(١٠) رجال الكشي ص : ١٢٥

(١١) رجال الكشي ص : ١٨٦

(١٢) رجال الكشي ص : ٣٦٦

وما أمر الله أن يكفر به ، قال الله تعالى : ﴿يُرِيدُونَ أَن يُتَخَاكَمُوا إِلَيَّ الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾ النساء ٦٠ قلت : فيكف يصنعان؟ قال : ينظران من كان منكم ممن قد روى حديثنا ، ونظر^(٩) في حلالنا وحرامنا ، وعرف أحكامنا ، فليرضوا به حكما ، فإني قد جعلته عليكم حاكما ، فإذا حكم فلم يقبل منه ، فإنما استخف بحكم الله ، وعلينا رد ، والراد علينا راد على الله ، وهو على حد الشرك بالله)^(١٠)

و حديث محمد بن الفضيل : قال : كنا في دهليز يحيى بن خالد بمكة ، وكان هناك - أبو يوسف^(١١) - يعني القاضي تلميذ أبي حنيفة المشهور - فدخل أبو الحسن موسى عليه السلام يعني الإمام الكاظم فقام إليه أبو يوسف ، وتربع بين يديه فقال : يا أبا الحسن جعلت فداك : المحرم يظلل؟ قال : لا قال : فيستظل بالمجدار والمحمل ، ويدخل البيت والخلاء؟ قال : نعم قال : فضحك أبو يوسف - شبه المستهزئ فقال له أبو الحسن عليه السلام : يا أبا يوسف ، إن الدين ليس بقياس كقياسك وقياس أصحابك ، إن الله عز وجل أمر في كتابه بالطلاق ، وأكد فيه شاهدين ، ولم يرض بهما إلا عدلين ، وأمر في كتابه بالتزويج ، وأهمله بلا شهود . فأتيتهم بشاهدين فيما أبطل الله ، وأبطلت شاهدين فيما أكد الله عز وجل ، وأجزتم طلاق المجنون والسكران ، حج رسول الله ﷺ فاحرم ولم يظلل ، ودخل البيت والخباء واستظل بالمحمل والمجدار ، ففعلنا كما فعل رسول الله ﷺ (فسكت)^(١٢) .

وفي حديث آخر أن أبا يوسف قال للمهدي العباسي وكان عنده الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام : (أتأذن لي أن أسأله عن مسائل ليس عنده فيها شيء فقال له : نعم فقال لموسى بن جعفر عليه السلام : أسألك؟ قال : نعم قال : ما تقولون في التظليل للمحرم؟ قال : لا يصلح . قال : فيضرب الخباء في الأرض

(٩) يلاحظ دقة التعبير فان النظر في الشيء يعطي معنى المعرفة المساقق للاجتهاد بخلاف النظر إلى الشيء

(١٠) الوسائل ج : ١٨ ص ٩٩

(١١) هو يعقوب بن ابراهيم بن حبيش الانصاري الكوفي صاحب ابي حنيفة وتلميذه ولد عام (١١٣) هـ كان فقيها مفتيا عارفا بالتفسير والمغازي قضى لثلاثة من خلفاء بني العباس ، المهدي والهادي والرشيدي وقد نال عند الرشيدي حظا مكينا وهو اول من دعي بقاضي القضاة توفي عام (١٨٢) هـ .

(١٢) الوسائل ج ٩ ص ١٥٠

قال أبو الحسن الرضا عليه السلام:

... كلام آخرنا مثل كلام أولنا وكلام أولنا مصدق لكلام آخرنا

ويدخل البيت؟ قال: نعم. قال: فما الفرق بين هذين؟ قال أبو الحسن عليه السلام ما تقول في الطامث، أتقضي الصلاة؟ قال: لا قال: فتقضي الصوم؟ قال: نعم قال: ولم؟ قال: هكذا جاء. فقال أبو الحسن عليه السلام: وهكذا جاء هذا. فقال المهدي لأبي يوسف: ما أراك صنعت شيئا. قال: رماني بحجر دامغ^(١).

اضطرار السلطة العباسية بالاعتراف بالفقه الامامي ايام الرضا عليه السلام

وقد بلغ ذلك القمة في عهد الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، حيث اضطرت السلطة العباسية - مراعاة للظروف العصبية المحيطة بها - للاعتراف الرسمي بالفقه الامامي الشيعي، بتعيين المأمون العباسي للإمام الرضا عليه السلام وليا للعهد، والزامه الخاصة والعامة، وجميع أجهزة الحكم بمبايعته. وهو وإن كان يهدف - في واقعة إلى جعل الإمام تحت مراقبته الشديدة، بل تشويه سمعته والتيل من مكانته المقدسة يجعله أحد أعمدة الجهاز الحاكم وأركانه لتنعكس تصرفاته عليه سلبا مع تعريضه لأنواع عديدة من المغريات والامتحانات العلمية العسيرة بتهيئة جماعة من أكابر علماء الأديان مسلمين وغيرهم لمناظرة الإمام عليه السلام في أصول العقائد وفروعها لعله يظفر ولو بكبوة واحدة منه عليه السلام، ليشنع بها عليه إمام أوليائه وغيرهم، فتتحط منزلته عندهم، ويسقط من أعينهم.

ولكن - بتسديد الله سبحانه وتعالى، ومعرفة الإمام الرضا عليه السلام بخفايا نوايا المأمون السيئة - خابت جميع مساعيه، وذهبت أدراج الرياح، بعد أن استطاع الإمام عليه السلام بما أوتي من علوم أبائه وأجداده عليه السلام مواهب عظيمة ومنح إلهية، من تخطي جميع الصعوبات التي أحاطت به، بل أظهر لعامة الناس وخاصتهم تفوقه المطلق في جميع العلوم ومجالات الكمال، مع بيان أحقيته وأحقية أبائه الطاهرين عليه السلام في خلافة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وانتزاع الاعتراف من أعدائه، ولاسيما النظام

(١) الوسائل ج ٩ ص ١٥٠

العباسي الحاكم، بأنه عليه السلام على الحق المبين، وإن الفقه الذي أرسى قواعده أباه الطاهرون عليه السلام مستقى من منابع الأصيلة الصافية للدين الإسلامي الحنيف، مما فتح المجال أمام أصحابه ومن جاء بعدهم من صحابة أبنائه الطاهرين عليه السلام للإعلان عن صفوة عقائدهم وآرائهم الكلامية والفقهية دون خوف التشهير بهم بأنهم على خلاف الأمة الإسلامية، أو التنكيل بهم لأجل عقيدتهم، كما ابتلى به جماعة من صحابة الأئمة عليهم السلام الذين سبقوه مما اكسب الفقه الامامي الشيعي ميزة كان يفتردها فيما مضى من الأزمنة ومن ثم بقي اسمه عليه السلام علما لمن جاء بعده من أبناءه عليه السلام فكان يشار إليهم بأسمائهم الشريفة ملحقه بعنوان (ابن الرضا) كما يعرف ذلك بأدنى ملاحظة لسيرتهم عليه السلام مع شيعتهم أو غيرهم.

عرض كتب الحديث على الأئمة عليه السلام

وتميزت هذه الفترة أيضا بعرض جملة من كتب وأصول جماعة من أصحاب الصادقين (عليهما السلام) على من بعدهما من الأئمة عليهم السلام، فقبلوا بعضها ولم يقبلوا الآخر، فمن ذلك ما في حديث محمد بن عيسى بن عبيد: إن بعض أصحابنا قال ليونس بن عبد الرحمن عليه السلام: (يا أبا محمد: ما أشدك في الحديث وأكثر إنكارك لما يرويه أصحابنا!! فما الذي يملكك على رد الأحاديث؟ فقال: حدثني هشام بن الحكم انه سمع أبا عبد الله عليه السلام يقول: لا تقبلوا علينا حديثا إلا ما وافق القرآن والسنة، أو تجدون معه شاهدا من أحاديثنا المتقدمة، فإن المغيرة بن سعيد (لعنه الله) دس في كتب أصحاب أبي أحاديث لم يحدث بها أبي فاتقوا الله، ولا تقبلوا علينا ما خالف قول ربنا تعالى، وسنة نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فإنا إذا حدثنا قلنا: قال الله عز وجل، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم^(٢).

وفي حديث يونس الآخر: (وافيت العراق فوجدت بها قطعة من أصحاب أبي جعفر عليه السلام ووجدت أصحاب أبي عبد

(٢) رجال الكشي ص ١٩٥ ١٩٦



تركيز الأئمة عليه السلام لأعاضه أصحابهم

كما ورد عن الإمام الرضا عليه السلام وأبنائه الطاهرين عليه السلام عدة نصوص أرجعوا فيها إلى بعض خواص أصحابهم إرجاعات خاصة، أو عامة. فمن ذلك ما في حديث الفضل بن شاذان: (قال: حدثني عبد العزيز بن المهتدي وكان خير قمي رأيته، وكان وكيل الرضا عليه السلام وخاصة - قال: سألت الرضا عليه السلام، فقلت: إني لا ألقاك في كل وقت، فمن أخذ معالم ديني؟ قال: خذ عن يونس بن عبد الرحمن^(٣) ونظيره ما في حديث محمد بن عيسى والحسن بن علي بن يقطين: (قال: قلت لأبي الحسن عليه السلام: جعلت فداك، إني لا أكاد أصل إليك أسالك عن كل ما احتاج إليه من معالم ديني أفبونس بن عبد الرحمن ثقة أخذ عنه ما احتاج من معالم ديني؟ فقال: نعم^(٤)) وما عن الفضل بن شاذان - وهو الصحابي الثبت الجليل - (ما نشأ في الإسلام رجل من سائر الناس كان أفقه من سلمان الفارسي ولا نشأ رجل بعده أفقه من يونس بن عبد الرحمن^(٥))

وما في حديث علي بن المسيب الهمداني: (قلت للرضا عليه السلام: شقتي بعيدة، ولست أصل إليك في كل وقت، فمن أخذ معالم ديني؟ قال: من زكريا بن آدم القمي المأمون على الدين والدينا)^(٦) وحديث أحمد بن إسحاق عن أبي الحسن الهادي عليه السلام قال: (سألته وقلت: من أعامل؟ وعمن أخذ؟ وقول من أقبل؟ فقال: العمري تقي - يعني: عثمان بن سعيد، أول النواب الأربعة - فما أدى إليك فعني يؤدي، وما قال لك فعني يقول فاسمع له وأطع، فإنه الثقة المأمون قال وسألت أبا محمد عليه السلام عن مثل ذلك فقال: العمري وابنه يعني: محمد بن عثمان ثاني النواب الأربعة ثقتان، فما أديا إليك فعني يؤديان وما قال لك فعني يقولان، فاسمع لها وأطعها فإنهما الثقتان المأمونان)^(٧) وغير ذلك مما يضيق المجال عن استيعابه.

تهيئة أذهان الأمة لغيبه المهدي عليه السلام

ومن أبرز مميزات هذه الفترة أيضا ان الأئمة عليهم السلام أخذوا

(٥) رجال الكشي ص ٤٠٩

(٦) رجال الكشي ص ٤١٤

(٧) رجال الكشي ص ٤١٠

(٨) الوسائل ج ١٨ ص ١٠٩

(٩) الوسائل ج ١٨ ص ١٠٠

(١) رجال الكشي ص: ٣٤٩

(٢) الوسائل ج: ١٨ ص ٩٠

(٣) الوسائل ج: ١٨ ص: ٧٢

(٤) الوسائل ج: ١٨ ص ٧٢

قد ثبت عندنا : أن أولى الناس بالنبي ﷺ هو الإمام علي عليه السلام وأن أبناءه الحسن والحسين عليهما السلام والتسعة الطاهرين ذرية الحسين عليهما السلام هم الوراث الحقيقيون لعلوم جدهم النبي ﷺ عن طريق أبيهم علي عليه السلام سيد الأئمة ، وقد وجب أن يكونوا - والحال هذه - مؤئنا الأول والأخير في معرفة الأحكام الشرعية .



يُعبون لهم وكلاء معلومين بأشخاصهم في عدد من الحواضر الإسلامية التي يكثر تواجد شيعتهم فيها ، يكونون هم الوسائل للوصول للأئمة عليهم السلام ، بل قد يُفصرون وظيفته بعض هؤلاء الوكلاء على جهات خاصة ، ويمنعون من تداخل وظائفهم ، أو مراجعتهم ، مما يكشف عن انتشار المذهب الامامي وكثرة معتنقيه . ولعل ذلك إنما كان لأجل أن يعتاد المؤمنون على انتفاء الضرورة لأن يتلقى كل منهم بإمام عصره ، مما يهيئ الجو العام لقبول فكرة غيبة الإمام وهضمها من قبل الشيعة ، بل لزوم التعايش معها كأمر واقع لا مفر منه ولذا كثر من الإمامين العسكريين عليهم السلام الاحتجاج عن شيعتهما لفترات متقطعة تطول أو تقصر بحسب الظروف ومقتضياتها ويكتفيان بوكلائهما المبثوثين في جملة من تجمع الشيعة .

بداية ظهور المجاميع الفقهية والحديثية

وقد قام هؤلاء الأصحاب والوكلاء ونظراؤهم رضوان الله تعالى عليهم في المعرفة والوثاقة بإيصال ما تلقوه عن المعصومين عليهم السلام إلى عامة المؤمنين في أرجاء المعمورة ، وربما كان لبعضهم مجاميع حديثية أصبحت بمرور الزمن هي المصدر الرئيس لأخذ الأحكام الشرعية من مظانها التي أمر الله سبحانه ورسوله ﷺ بالرجوع إليها ، والاعتماد عليها . وقد استقى من غيرها الصافي مؤلفو المجاميع الحديثية المشهورة عند الشيعة الإمامية بعد عصر الغيبة أكثر رواياتهم ، وهي : (الكافي) لثقة الإسلام الكليني ، و (من لا يحضره الفقيه) للصدوق محمد بن علي بن بابويه ، و (التهذيب) و (الاستبصار) للشيخ الطوسي عليه السلام . والتي ما زالت المرجع الأساس للفقهاء منذ تأليفها وإلى الآن ، وستبقى بإذن الله تعالى كذلك إلى ظهور قائم آل محمد ﷺ مرجعا في استنباط الأحكام الشرعية .

وقد تصدى جماعة من أعلام حملة الحديث الشريف للجمع بينها ، أو إضافة ما في غيرها إليها ، فظهرت جملة موسوعات أهمها : بحار الأنوار للمجلسي ، والوافي للفيض الكاشاني ، ووسائل الشيعة للحر العاملي ، وقد قدر للأخير من التوفيق

والانتشار - خصوصا بين الفقهاء - ما لم يقدر لغيره ولعل العامل الرئيس في ذلك هو حسن تبويبه ، واشتماله على فهرست مختصر مستوعب في كل جزء يسهل معه معرفة ما اشتمل عليه الكتاب ، المقسم على أبواب تستقصى غالبا الروايات الواردة في كل مسألة على حدة ، مما يتييسر معه للفقهاء عادة الاطمئنان ، أو ما يقرب منه ، باستكمال الفحص ، فقد نقل عن شيخ الفقهاء المتأخرين صاحب الجواهر عليه السلام : إن من استوعب كتابه الجواهر وجامع المقاصد للمحقق الكركي ، والوسائل فقد خرج عن عهدة الفحص الواجب على الفقيه في الفروع . وهذا يعطي صورة واضحة وصادقة عن أهمية ومنزلة كتاب الوسائل في بابه كما لا يخفي

اعتماد الأمة على النواب المعتمدين في الغيبة الصغرى

وفي عصر الغيبة الصغرى (٢٦٠ - ٣٢٩ هـ) كان الناس يفرعون إلى سفراء الحجة المهدي ونوابه الأربعة : عثمان بن سعيد العمري^(١) ، وابنه محمد بن عثمان المعروف بالخلافي^(٢) ، والحسين بن روح^(٣) ، وعلي بن محمد السمري^(٤) رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم . وقد كانت وظيفتهم مشابهة - إلى حد ما - لوظيفة الإمام عليهم السلام يجيبون عن الاستفتاءات بمراجعة الناحية

(١) وهو أبو عمرو عثمان بن سعيد العمري (بفتح العين) الاسدي السمان الزيات جليل القدر وكان قد خدم الامام الهادي وهو ابن احد عشر عاما ثم توكل للامام ابي محمد العسكري ثم كان نائبا للامام الحجة (عج) وهو اول السفراء الاربعة وبعده كان ابنه محمد بن عثمان .

(٢) محمد بن عثمان العمري وهو ثاني السفراء يكنى بابي جعفر وله منزلة جلية عند الطائفة والروايات في جلالته وعظمة مقامه متضاهة ، توفي في جمادى عادي الاولى عام (٣٠٥) هـ وقيل (٣٠٤) هـ وكان يتولى هذا الامر نحو من خمسين عاما وقبره ببغداد معروف بيزار .

(٣) الحسين بن روح : هو ابو القاسم الحسين بن روح النوبختي احد النواب الاربعة والثالث منهم في زمن الغيبة الصغرى ، عظيم القدر والمنزلة توفي في شهر شعبان عام ٣٢٦ هـ وقبره في بغداد مزار معروف .

(٤) علي بن محمد السمري نائب الحجة المنتظر (عج) بعد ابي القاسم الحسين بن روح عليه السلام يكنى بابي الحسن وثاقته وجلالته اشهر من ان تذكر مات في النصف من شعبان عام (٣٢٨) هـ او (٣٢٩) هـ وبموته وقعت الغيبة الكبرى وكان قد خرج توقيع شريف يخبره بموته الى ستة ايام فلما حضرته الوفاة سئل ان يوصي؟ فقال : لله امر هو بالغه وتوفي في اليوم السادس كما اخبر في التوقيع الشريف .

المقدسة ، ويقبضون الحقوق المالية الشرعية ليوصلوها إلى أهلها ، وينفون البدع عن الدين الحنيف ، ويدفعون الشبهات ، ويردعون عن الباطل ويظهرون الحق ، ما وجدوا إلى ذلك سبيلا ففي حديث احمد بن إسحاق إنه سأل العمري عن مسألة - ولعلها فيما يتعلق بخصوصيات القائم المهدي عليه السلام - (فقال : محرم عليكم أن تسألوا عن ذلك ، ولا أقول هذا من عندي فليس لي أن أحلل ولا أحرم) .

ولا يعني ذلك ان هؤلاء السفراء عليهم السلام - على جلالتهم - هم المرجع الوحيد في معرفة الأحكام الشرعية إذ لا يختلف حال عصر الغيبة عن عصر الحضور ، الذي عرفت وجوده جملة وافرة فيه من أصحاب الأئمة عليهم السلام يرجع إليهم عامة الناس في مختلف الأقطار ، لعدم إمكان وصول كل أحد وفي أي وقت لإمام عصره وكذلك حال أي من السفراء الأربعة عليهم السلام

تقييم موجز لأهم كتب الحديث والفقه

وفي هذا الدور ألف ثقة الإسلام محمد بن يعقوب الكليني عليه السلام كتابه (الكافي) - الذي وافق اسمه مسماه - في عصر الغيبة الصغرى ، وكان معاصرا لعدد من النواب الاربعة ، وتوفي في نفس السنة التي توفي فيها آخر النواب الأربعة علي بن محمد السمري عليه السلام (٣٢٩ هـ) ومعنى ذلك أنه كان يبرأى من النواب المذكورين وبمسمع خصوصا مع مجاوراته لهم في بغداد بعد أن انتقل إليها من الري مضافا إلى ما عرف به عليه السلام من فضل ومكانة مرموقة في دنيا العلم والفقه فقد وصفه النجاشي عليه السلام بأنه شيخ الشيعة في الري في وقته ووجههم وأنه لم يكن أحد أوثق منه في الحديث .

وكان الكليني عليه السلام قد ألف كتابه الخالد - كما جاء في ديباجته أجابه لطلب أحد أجلاء إخوانه وإن لم يذكره بالاسم تأليف كتاب كاف يجمع فيه من جميع فنون علم الدين ما يكفي به المتعلم ويرجع إليه المسترشد ويأخذ منه من يريد الدين والعمل به بالآثار الصحيحة عن الصادقين عليهم السلام والسنن القائمة التي عليها العمل ، وبها يؤدي فرض الله عز وجل ، وسنة نبيه ﷺ ،

وأن يكون ذلك سببا يتدارك الله تعالى بمعونته وتوفيقه إخواننا وأهل ملتنا ويقبل بهم إلى مرادهم قال عليه السلام :

(وقد يسر الله - وله الحمد - تأليف ما سألت ، وأرجو أن يكون بحيث توخيت ، فمهما كان فيه من تقصير فلم تقصر نيتنا في إهداء النصيحة إذ كانت واجبة لإخواننا وأهل ملتنا ، مع ما رجونا أن نكون مشاركين لكل من اقتبس منه وعمل بما فيه في دهرنا هذا وفي غابره - يعني مستقبله لأنه من الأضداد - إلى انتقضاء الدنيا) ولعلنا نذكر أهم مميزاته عن باقي كتب الحديث عند الخاصة والعامّة عند البحث عن علم الحديث فيما يأتي إن شاء الله تعالى .

وفي هذا العصر أيضا ألف الصدوق الاول (علي بن بابويه) - المعاصر للسفراء الاربعة ، والمتوفى أيضا عام ٣٢٩ هـ - رسالته المعروفة باسمه ، المشتملة على قسم كبير من أبواب المسائل الفقهية ، والتي يكثر ولده الصدوق عليه السلام (محمد بن علي) النقل عنها في كتابه (من لا يحضره الفقيه) بل المعروف بين قدماء الأصحاب أنها مضامين أخبار شريفة محذوفة الأسانيد ، ومن ثم حكي عن الشهيد عليه السلام في الذكرى قوله : (ان الأصحاب كانوا يأخذون الفتاوى من رسالة علي بن بابويه إذا أعوزهم النص ، ثقة واعتمادا عليه) .

كما ألف محمد بن مسعود العياشي عليه السلام تفسيره المعروف باسمه المشتمل على عدد لا يستهان به من الروايات المتكفلة بتفسير بعض آي الذكر الحكيم . مضافا إلى تأليفه عدة كتب في جملة من أبواب الفقه . ومثله تفسير علي بن إبراهيم القمي عليه السلام الذي شهد بوثاقه رجال أسانيد ، وكان اعتماده في التفسير على روايات الأئمة عليهم السلام ، فهو تفسير القرآن بالروايات ، بما فيه من آيات الأحكام ، مما له نفع كبير في جملة من أبواب الفقه .

وألف محمد بن الحسن الصفار عليه السلام - صاحب كتاب بصائر الدرجات - عدة كتب في أبواب الحديث والفقه المتفرقة ، وهي من المصادر المعتمدة لدى الفقهاء والمحدثين قال عنه النجاشي عليه السلام : (كان وجيها في أصحابنا القميين ثقة عظيم القدر راجحا ، قليل السقط في الرواية) ثم ساق كتبه ، وذكر أنه عليه السلام توفي عام (٢٩٠ هـ) ولست بصدد إحصاء كتب الأعلام في هذه الفترة ، لأنه خارج عن المقصود الأساس لهذا البحث وإنما الإشارة إلى نماذج من المؤلفات في الفقه والحديث

كان لكل واحد من الأئمة عليهم السلام صفة من الأصحاب يدونون ما سمعوه منهم في أصل أو كتاب وكانت تعرض هذه الكتب والأصول عليهم عليهم السلام فيصححون ما فيها ويثنون على أصحابها .

تكون شاهد صدق على تواصل حلقات سلسلة الفقه وعلموه من عصور أصحاب المعصومين عليهم السلام إلى ما بعد عصر الغيبة الصغرى المنتهية بوفاة السفير الرابع (علي بن محمد السمرى) عام (٣٢٩ هـ)

وبعد هذه الفترة برز عدة أعلام ألقوا في الفقه والحديث ، وأكثروا وأجادوا في ذلك حتى بلغوا الغاية كأبي القاسم جعفر بن محمد بن قولويه عليه السلام الذي قال عنه النجاشي في ترجمته : (كان أبو القاسم من ثقة أصحابنا وإجلالهم في الحديث والفقه وعليه قرأ شيخنا أبو عبد الله يعني المفيد عليه السلام الفقه ، ومنه حمل وكل ما يوصف به الناس من جميل وفقه فهو فوقه له كتب حسان) (٢) ثم ساق جملة من كتبه في الفقه .

أهم مؤلفات الصدوق (رحمه الله)

واشتهر في هذا العصر أيضا الشيخ الصدوق عليه السلام (محمد بن علي بن الحسين بن بابويه) . وقد روى عنه شيوخ أهل العلم والحديث في بغداد وغيرها وهو حدث السن ، وما ذلك إلا لسعة علمه واطلاعه . ويشهد له كثرة مؤلفاته في مختلف المجالات ، حتى أحصي له ما يزيد على ثلاث مائة مصنف ، أكثرها متون أحاديث رواها عن أعظم علماء الإمامية ومحدثيهم ، بل عن مختلف علماء الاسلام في أقطار شتى أثناء سفرائه المتعددة إلا أن أهم مؤلفاته هو كتاب (من لا يحضره الفقيه) المشتمل على (٥٩٦٣) حديثا والذي ذكر في مقدمته أنه لم يودع فيه إلا ما يعتقد صحته ، ويراد حجة بينه وبين الله تعالى وقد أُلّفه إجابة لطلب بعض محبيه ممن لا يسعه رده كما قال - وسماه بذلك تشبيها بكتاب ابن زكريا الرازي^(١) في الطب (من لا يحضره الطبيب) وقصد من ذلك الاستغناء عن الاستفتاء ومراجعة الفقهاء فيما يبطل به المكلف عادة من مسائل تنظم شؤون معاشه ومعاده : من عباداته ومعاملاته ومن ثم لا يتوقف الفقهاء عن نسبة ما

(١) أبو بكر محمد بن يحيى بن زكريا الرازي طبيب فيلسوف له العديد من المصنفات وكلها باللغة العربية ولد عام (٢٥١ هـ) في الري بالقرب من طهران حاليا توفي في مسقط رأسه عام (٣١٣ هـ) . او (٣٢٠ هـ) .

فيه من فتاوي إلى الصدوق كآراء له ، مما يكشف عن عدم اعتباره بأنظارهم مجرد جمع للأحاديث الشريفة ، بل هو لبيان آراء مؤلفه الفقهية . وذلك يعطيه أهمية كبيرة في مضماره لجمعه بين الأحاديث والفقه .

التهديبان للشيخ الطوسي

وختم هذا الدور شيخ الطائفة عليه السلام (محمد بن الحسن الطوسي) بتأليفه كتابيه الجليلين : التهديب ، الذي هو شرح استدلالى بمتون الأحاديث لكتاب (المقنعة) للشيخ المفيد عليه السلام وقد بدأ به في حياة شيخه هذا حتى كتاب الصلاة ثم أتمه بعد وفاته يظهر بين الفترتين فرق واضح في كيفية البحث فهو في الأولى أضحى منه في الثانية حيث أخذ يتوسع فيها إلى أكثر مما يتعرض له الشيخ المفيد في مقنعته . وبلغت أحاديثه (١٣٥٩٠) حديثا مستخرجة من الأصول المتعمدة لقدماء الأصحاب ، التي كانت تحت يد الشيخ عند وجوده في بغداد .

وكتاب (الاستبصار فيما اختلف من الأخبار) وقد اقتصر فيه على الأخبار المختلفة ، وطرق الجمع بينها في عامة أبواب الفقه ، ويعتبر قطعة من التهديب إلا أن فيه فوائد كثيرة قد تعين الفقيه ، أو تثير له الطريق في الجمع بين الأخبار المتعارضة ، وإن كانت جملة منها جموعا تبرعية ، قد لا ترقى إلى مرتبة الحجية .

وقد حصر الشيخ عليه السلام أحاديثه في خاتمة بـ (٥٥١١) حديثا ، خوف وقوع الزيادة والنقصان فيه ويعرف الكتابان معا بالتهديبين ، وهما من المجاميع الحديثية التي يدور عليها الاستنباط عند الفقهاء منذ تأليفها وإلى ما شاء الله تعالى . هذه هي أهم معالم الدور الأول من ادوار الفقه الشعبي الامامي ، الذي سميناه (دور التأسيس) بعصوره المختلفة . ولا يعني ذلك انحصار المؤلفات فيه بما ذكرنا ، إذ توجد عدة كتب تعتبر من

(٢) أبو عبد الله محمد بن النعمان بن عبد السلام البغدادي ، اليه رئاسة الشيعة ، اتفق الجميع على علمه وفضله وفقهه وعدالته وثقته وجلالته له أكثر من مائتي مصنف ، ولد في الحادي عشر من ذي القعدة سنة (٣٣٦ هـ) ، وتوفي ليلة الثالث من شهر رمضان في بغداد سنة (٤١٣ هـ) وكان يوم وفاته لم ير اعظم منه لكثرة المصلين والباكين عليه من المخالف والمؤلف .



المصادر المهمة المتممة لذلك ، مثل (قرب الإسناد) للحميري^(١) ، و (المحاسن) للبرقي^(٢) ، وغيرهما إلا أنها ليست بتلك المثابة من الأهمية التي تمثلها الكتب الأربعة المشهورة مضافا إلى استيعابها لأكثر أبواب الفقه ، بخلاف غيرها من الكتب .

الدور الثاني : دور التفريع

ومقصودنا الأساس من هذا العنوان بيان استفادة علماء هذا الدور مما بأيديهم من أدلة ، سواء كانت من الكتاب أم من السنة الشريفين اعتمدت عليها في الوصول إلى النتائج الشرعية .

وهذا يعني بداية عملية الاجتهاد - بمفهومها الواسع - المعتمدة على الاستقصاء والفحص ، وإعمال النظر والترجيح ، لاختيار ما يراه صاحبه حقا ، لا مجرد العمل بما يفهمه المرء من الآية أو الحديث الشريفين كما كان هو الأكثر شيوعا عند أصحاب الأئمة عليهم السلام في الدور الأول .

ويتمثل في الكتب التي ألفتها أصحابها اعتمادا على مروياتهم من الأحاديث الشريفة ، أو بعد الجمع بينها وبين ما يفهمونه من الكتاب العزيز ، أو مقارنتها بغيرها من الأحاديث ، مع عدم ذكر أسنادها ، ثم استصفاة النتيجة الفقهية المطلوبة من المجموع .

وقد يعثر المتتبع في مؤلفات هذا العصر على الخروج عن مضامين النصوص الشريفة ، أو الانتقال منها إلى غيرها ، بما يشبه أن يكون صغرى لكبرى استفادة من النص كما يظهر بوجه معتد به الاعتماد على الاجماع كدليل مستقل يرجع إليه الفقيه مقام الاستنباط وقد ظهر ذلك بوضوح في جملة مؤلفات السيد المرتضى الفقهية ، فقد أُلّف كتابه (الانتصار) المشتمل على ما يراه أنه من منفردات الإمامية ، مستدلا عليه بإجماع الفرقة

(١) هو أبو العباس عبد الله بن جعفر الحميري من اكابر علماء قم والشخصيات الشيعة الامة واصحاب الامامين الهادي والعسكري عليهم السلام ومن مؤلفاته قرب الاسناد .

(٢) احمد بن محمد المعروف بالبرقي يكنى بابي جعفر وهو من اصحاب الامام الجواد والهادي عليهم السلام وهو من علماء الشيعة الثقات وفقه الشيخ والعلامة والنجاشي ومن ابرز مصنفاته (المحاسن) توفي عام (٢٧٤ هـ) او (٢٨٠ هـ) .

المحقة ، مقرونا ببعض النصوص أو الوجوه الاعتبارية في رد ما شنع به بعض المخالفين على ما اشتهر عندنا من آراء في الفقه أو في غيره وكذا صنع الشيخ الطوسي (تلميذ المرتضى) في جملة من مؤلفاته الفقهية وهذه الكتب أشبه ما تكون بالرسائل العملية المتداولة في عصورنا المتأخرة ، التي تمثل وجهات نظر مؤلفيها ومختاراتهم في أبواب الفقه . وأهم ما وصل إلينا من كتب هذا الدور ما يلي :

(٢ ، ١) كتابا (المقنع) و (الهداية) للصدوق عليه السلام وهما يشبهان - إلى حد بعيد - رسالة والده الصدوق الأول التي تقدمت الإشارة إليها في دور التأسيس

(٣) كتاب (المقنعة) للشيخ المفيد عليه السلام وهو الذي شرحه تلميذه الشيخ الطوسي بكتابه (التهديب)

(٤) كتاب (الجملة والعقود) في خصوص العبادات للشيخ الطوسي وكذا كتابه (الاقتصاد الهادي إلى الرشاد) وهو فيما يجب على العباد من أصول العقائد والعبادات الشرعية على وجه الاختصار

(٥) كتاب (النهاية : مجرد الفقه والفتاوي) للشيخ الطوسي أيضا ، وهو خاتمة هذا الدور ولعله خير ما يصلح لتمثله أحسن تمثيل ، وهو مقصودنا من عنوان هذا الدور ، فقد قال عنه عليه السلام في مقدمة كتابه (المبسوط) : (وكنيت عملت في قديم الوقت كتاب (النهاية) ، وذكرت جميع ما رواه أصحابنا في مصنفاتهم ، واصلوه من المسائل ، وفرقوه في كتبهم ، ورتبته ترتيب الفقه ، وجمعت بين النظائر)

هذا مضافا إلى جملة من أجوبة المسائل لعدد من أعلام هذا العصر ، التي تخص بابا معيناً من الفقه ، أو عدة أبواب ، تكون عادة جوابا لاستفتاءات من شخص ، أو جهة واحدة . فان المتتبع لتراجم الأعلام المذكورين وغيرهم يعثر على عدة كتب منسوبة إليهم ، وليست هي - في حقيقتها - إلا ما ذكرناه . فتجد في ترجمة الشيخ الصدوق عليه السلام جملة كتب ذكرها النجاشي له ، وهي عبارة عما اشرنا إليه من أجوبة فقد ذكر له جوابات المسائل الواردة إليه من واسط وقزوین ومصر والبصرة والكوفة والمدائن وغيرها ، معتبرا كلا منها كتابا مستقلا له عليه السلام .

ونظيره ما تجده في تراجم الشيخ المفيد والسيد المرتضى والشيخ الطوسي وأقرانهم عليهم السلام من أعلام هذا العصر .

قال الامام ابو عبد الله الصادق عليه السلام: ما أجد أحداً أحيا ذكرنا وأحاديث أبي الازرار، وأبو بصير (ليث المرادي)، ومحمد بن مسلم، ويزيد بن معاوية العجلي. ولولا هؤلاء ما كان أحد يستنبط هذا، هؤلاء حفاظ الدين، وأمناء أبي على حلال الله وحرامه.

الدور الثالث : دور النضج

اتضح في هذا الدور وجود فقهاء مدرسة أهل البيت عليهم السلام، وتميزهم في المجتمع الاسلامي عن فقهاء العامة، بتعاملهم مع الأئمة الأثني عشر عليهم السلام على انهم امتداد لمهمة النبي صلى الله عليه وآله في التبليغ، وإن ما يصدر عنهم عليهم السلام صادر عنه صلى الله عليه وآله. مع نبذ القول بالقياس أو الاستحسان ونحوهما، مما اشتهر العمل بها عند فقهاء العامة، على ما يأتي توضيحه - إن شاء الله تعالى - عند البحث عن علم أصول الفقه.

وقد اشتهر في بداية هذا العصر كتاب (التمسك بحبل آل الرسول) للفقهاء الجليل الحسن بن علي بن أبي عقيل العماني، فقد قال عنه النجاشي: (كتاب مشهور في الطائفة. وقيل: ما ورد الحاج من خراسان إلا طلب واشترى منه نسخا وسمعت شيخنا أبا عبد الله عليه السلام يعني: المفيد يكثر الثناء على هذا الرجل عليه السلام).

وكذا مؤلفات الفقيه محمد بن احمد بن الجنيد، المشهور بالكاتب تارة والاسكافي أخرى. ويقول عنه النجاشي: (وجه في أصحابنا، ثقة جليل القدر، صنف فأكثر) (٢) ثم استعرض جملة مؤلفاته، وأهمها كتاب (تهذيب الشيعة لأحكام الشريعة) المشتمل على أكثر أبواب الفقه.

تنزيه ساحة العماني وابن الجنيد من الطعون

وإنما خصصت هذين العالمين الجليلين بالذكر، تنبيها على ما قد يطعن فيهما من قولهما بالقياس، وموافقة فتاواهما للعامة. مما أوجب تسرع البعض في رد أقوالهما، وعدم إعطائهما ما يستحقان من فضل الريادة في التأليف في الفقه الاستدلالي.

أما القول بالقياس، فلا يبعد أن يكون لإعمالهم النظر والتأمل في الأحكام، بملاحظة ما ورد عن المعصومين عليهم السلام مما يطابق الأصول المتعمدة لدى الأصحاب في الوصول للنتائج الفقهية، لا القياس المنهي عنه في لسان الأئمة عليهم السلام، فإنه لا يناسب ما تقدم في حقهما من جليل المدح ممن عرفت.

وأما موافقة العامة، فهي لو كانت لا تقدر بفضل الشخص وفقهه، إذ لعل ما استند إليه في النتيجة هو الحجة بنظره، دون غيره المخالف لهم، فإنه لم يثبت بطلان أو عدم صدور كل ما يوافق العامة من أحكام، بل هو مقطوع البطلان، لكثرة الأحكام التي يتفق فيها علماء الإسلام. على أنك لا تجد عادة فقيها مستوعبا لأكثر أبواب الفقه إلا هو يخالف في الجملة بعض ما عليه الأصحاب، ولازمه موافقة العامة. فلا يمكن عدّ ما ذكر طعنا في هذين العالمين، أو كتبهما الفقهية، خصوصا بعد كونهما من أوائل المؤلفين في الفقه الاستدلالي. فلاحظ وتأمل.

وقد نقل عن الفقيه أبي جعفر فخار بن معد الموسوي وهو من أكابر المشايخ العظام والفقهاء الكرام، الموصوف في كتب التراجم بكل جميل، المتوفى عام (٦٣٠) من أنه وقف على كتاب ابن الجنيد (تهذيب) المتقدم فذكر أنه لم ير لأحد من الطائفة كتابا أجود منه، ولا أبلغ ولا أحسن عبارة، ولا أرق معنى منه. وقد استوفى فيه الفروع والأصول، وذكر الخلاف في المسائل، واستدل بطرق الإمامية وطرق مخالفهم^(١).

الشيخ المفيد:

واشتهر من بعدهما الشيخ المفيد عليه السلام محمد بن محمد النعمان (٣٣٦-٤١٣ هـ) الذي انتهت إليه رئاسة الإمامية والمرجعية الدينية العليا في وقته، وقد عرف بمجدة الخاطر، وشدة الفطنة، والاطلاع الواسع في العلوم العقلية والنقلية، وفضله على الأمة اكبر من أن نحيط به في هذه العجالة. إذ من المعلوم في حال الشيعة الإمامية أنهم لا يعدّون أي عالم مرجعا عاما، ما لم يكن على اطلاع واسع في الفقه وأصوله والتفسير والحديث ونحوها من العلوم.

وقد ذكرت كتب التراجم للشيخ المفيد عليه السلام عدة كتب في الفقه موسّعة ومختصرة، بل استوعبت مؤلفاته أكثر العلوم السائدة في عصره، ويكفي شاهدا على سعة علمه وتسّمه الذروة العليا في الفقه وغيره من العلوم، تلمذ علم الهدى السيد المرتضى عليه السلام.

(١) المعالم الجديدة للأصول ص: ٦١.



وأخيه السيد الرضي عليه السلام عليه، بل وكذا شيخ الطائفة أبو جعفر الطوسي عليه السلام وغيرهم من أعلام هذه الفترة.

تعريف بأهمية كتاب المبسوط

ولعل أبرز ما وصل إلينا في هذا الدور هو كتاب (المبسوط) في الفقه، للشيخ الطوسي عليه السلام المتوفى عام ٤٦٠ هـ فهو يعدُّ بحق أحسن مثال لرواد فقهاء هذا الدور، فقد قال عليه السلام في مقدمته: إنني لأزال أسمع معاصر مخالفتنا من المتفهمة والمنتسبين إلى علم الفروع يستخفون بفقه أصحابنا الإمامية، وينسبونهم إلى قلة الفروع، وقلة المسائل، ويقولون: إنهم أهل حشو ومناقضة، وأن من ينفي القياس والاجتهاد لا طريق له إلى كثرة المسائل، ولا التفريع على الأصول، لأن جُلَّ ذلك وجمهرته مأخوذ من هذين الطريقتين.

وهذا جهل منهم بمذاهبنا. وقلة تأمل لأصولنا، ولو نظروا في أخبارنا وفقهنا لعلوا أن جل ما ذكروه من المسائل موجود في أخبارنا، ومنصوص عليه عن أئمتنا - الذي قولهم في الحجة يجري مجرى قول النبي صلى الله عليه وآله - إما خصوصا أو عموما أو تصريحاً أو تلويحاً. وأما ما كثروا به كتبهم من مسائل الفروع، فلا فروع من ذلك إلا وله مدخل في أصولنا، ومخرج على مذاهبنا، لا على وجه القياس، بل على طريقة توجب علما، يجب العمل عليها، ويسوغ المصير إليها، من البناء على الأصل، وبراءة الذمة، وغير ذلك. مع أن أكثر الفروع لها مدخل فيما نص عليه أصحابنا، وإنما كثر عددها عند الفقهاء لتركيبهم المسائل بعضها على البعض، حتى أن كثيرا من المسائل الواضحة دقَّ لضرب الصناعة، وإن كانت المسألة معلومة واضحة.

وكت - في قديم الوقت وحديثه متشوق النفس إلى عمل كتاب يشتمل على ذلك تتوق نفسي إليه فيقطعني عن ذلك

(١) ابو الحسن محمد بن الحسين بن موسى ويلقب بالشرى رضي شاعر فقيه شيعي ولد في بغداد عام (٣٥٩هـ) وتوفي فيها عام (٤٠٦هـ) كان تقيبا للطلاب حتى وفاته ودرس هو واخوه الشريف المرتضى على يد الشيخ المفيد ومن اهم اثاره جمعه لخطب وكلمات امير المؤمنين في نهج البلاغة.

القواطع وتشغلي الشواغل وكنت عملت على قديم الوقت كتاب النهاية وذكرت جميع ما رواه أصحابنا في مصنفاتهم واصلوه من المسائل وفرقوه في كتبهم ورتبته ترتيب الفقه وجمعت بين النظائر ورتبت في الكتب على ما رتبت وعملت بآخر مختصر جمل العقود في العبادات سلكت فيه طريق الإيجاز ووعدت فيه أن أعمل كتابا في الفروع خاصة يضاف إلى كتاب النهاية ويجمع معه ان يكون كاملا كافيا في جميع ما يحتاج إليه ثم رأيت ان ذلك يكون مبتورا يصعب فهمه على الناظر فيه لان الفرع إنما يفهم إذا ضبط الأصل معه فعدلت إلى عمل كتاب يشتمل على عدد جميع كتب الفقه التي فصلها الفقهاء وهي نحو من ثلاثين كتابا أذكر كل كتاب منه على غاية ما يمكن تلخيصه من الألفاظ وأقتصر على مجرد الفقه دون الأدعية والآداب واعقد فيه الأبواب واقسم فيه المسائل واجمع بين النظائر واستوفيه غاية الاستيفاء واذكر أكثر فروع التي ذكرها المخالفون وأقول ما عندي على ما تقضيه مذاهبنا وتوجه أصولنا بعد أن أذكر أصول جميع المسائل وهذا الكتاب إذا سهل الله تعالى إتمامه يكون كتابا لا نظير له لا في كتب أصحابنا ولا في كتب المخالفين لاني إلى الآن ما عرفت لأحد من الفقهاء كتابا واحدا يشمل على الأصول والفروع مستوفيا مذهبنا بل كتبهم وإن كانت كثيرة فليس يشتمل عليهما كتاب واحد وأما أصحابنا فليس لهم في هذا المعنى ما يشار إليه).

وهكذا كان كتاب (المبسوط) محاولة ناجحة جدا في نقل البحث الفقهي من نطاق النصوص والجمود على مداليلها إلى مجال واسع من البحث والتفريع على الأصول والمقارنة بين الأحكام وتطبيق القواعد العامة للمذهب الامامي بما يتناسب ومختلف الفروض والحوادث المتطورة انطلاقا من النصوص الشريفة قواعد المذهب فكان بحق نقلة نوعية في عالم الفقه والتأليف والمناظرة.

نشأة الفقه المقارن على يدي الشيخ الطوسي

كما تميز هذا الدور بالبحث الفقهي المقارن المبني على استعراض أقوال المشهورين من علماء العامة، ومقارنتها بما عند علمائنا، واختيار الأوفق بالأدلة والأصول المسلمة فقد ألف الشيخ الطوسي عليه السلام رائد التطور الفقهي إضافة لكتابه (المبسوط)

اضطرت السلطة العباسية- مراعاة للظروف العصيبة المحيطة بها- للاعتراف الرسمي بالفقه الإمامي الشيعي ، بتعيين المأمون العباسي للإمام الرضا عليه السلام وليا للعهد ، والزامه الخاصة والعامة ، وجميع أجهزة الحكم بمبايعته .



كتاب (الخلاف) ، الذي تناول فيه المسائل الفقهية في مختلف الأبواب وتعرض لآراء العامة والخاصة بشكل موسع نسبيا ، وذكر ما يصلح أن يكون مستندا لكل من الجانبين ، مع مناقشة آراء المذاهب الأخرى سواء منها الأربعة المشهورة أم غيرها ، وقد تميز كما ذكر بعض علماء العامة المعاصرين^(١) الموضوعية ، والأمانة في النقل ، متخلفا بأخلاق العلماء الباحثين عن الحق . وهو وإن سبقه في ذلك أستاذه المفيد المرتضى عليه السلام فقد ألف الأول كتاب (الإعلام فيما اتفقت الإمامية عليه من الأحكام وما اتفقت العامة على خلافهم فيه)^(٢) والثاني كتاب (الانتصار) المختص ببيان ما يراه الله تعالى أنه من منفردات الإمامية في مقابل العامة إلا أنها كانا شديدي الاختصار خاليتين غالبا عن الاستدلال ما عدا الإجماعات أو الإشارة المقتضية للآيات والنصوص الشريفة.

في حين يبلغ كتاب (الخلاف) أضعافا مضاعفة لهما فهو يعد بحق رائد الفقه المقارن على صعيد المفكرين الإسلاميين عامة لا الشيعة خاصة ومن ثم لم يكتب لأي من كتب الفقه المقارن عندنا من الانتشار والشهرة ما كتب له حتى ألف العلامة الحلي عليه السلام كتابه الخالد (تذكرة الفقهاء) فهو أوسع بكثير من خلاف الشيخ عليه السلام وقد بقيا معا - حتى العصور المتأخرة - أهم المصادر عند أعلامنا^(٣) في هذا المجال من الفقه .

كما أن العلامة عليه السلام ألف كتابا آخر في الفقه المقارن سماه (منتهى المطلب في تحقيق المذهب) وقال عنه في خلاصته : (لم يعمل مثله ، ذكرنا فيه جميع مذاهب المسلمين في الفقه ، ورجحنا ما نعتقده ، بعد إبطال حجج من خالفنا فيه ، يتم إن شاء الله تعالى ، عملنا منه إلى هذا التاريخ وهو شهر ربيع الآخر عام ٦٩٣ هـ سبع مجلدات) وهو المشتهر في ألسنة الفقهاء ب(المنتهى) .

ولا يخفى ما في استعراض آراء المخالفين والموافقين من فائدة مهمة في تنمية الأفكار الفقهية ورفدها بموارد تؤدي إلى خصوبة الأبحاث وتعميقها لمحاولة إعلام كل طائفة سد الثغرات

(١) الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه (الإمام الصادق)

(٢) مقدمة شرح اللمعة طبع النجف الاشرف ج : ١ ص : ٦٧ .

في أدلتهم حتى لا يبقى مجال للخصوم للظعن عليهم والنفوذ منها إلى تنفيذ تلك الآراء ، وإفحام أصحابها .

ولا بد من الإشارة هنا - والألم يحز في النفوس - إلى أن هذا النحو من استعراض الأدلة التي يتبناها مخالفو المؤلف في المذهب والرأي يوجد بكثرة في مؤلفات الفقهاء العامة ، إلا أنها تخلو على كثرتها من استعراض آراء فقهاء أصحابنا^(٤) وكأنهم غير معترف بهم كأعلام نوابغ لهم أفكار تستحق العرض والمناقشة الحرة النزهة . وليس مرد ذلك عند التأمل في أكثر أحوالهم إلا التعصب المقيت الذي ينبغي للعالم أو طالب الحق أن يتجرد عنه . وهذا بخلاف ما صنعه شيخ الطائفة الطوسي والعلامة الحلي عليه السلام في كتبهم الخالدة المشار إليها سابقا وهذه هي ميزة أساسية لأعلامنا^(٥) عن غيرهم من فقهاء باقي فرق المسلمين .

كما أن هذا العصر لم يعدم أعلاما فقهاء تركوا آثارا مهمة في الفقه تشهد بعلو كعبهم وتضلعهم كابن حمزة^(٦) ، والقاضي ابن البراج^(٧) ، وسلازل الديلمي^(٨) ، والسيد ابن زهرة الحلي^(٩) (رض) ، وغيرهم من تلاميذ الشيخ المفيد ، والسيد المرتضى ، والشيخ الطوسي . ولا مجال لاستعراض مؤلفاتهم فإنه ليس من مقاصدنا الأساسية ، وإنما ذكرناهم وفاء لبعض حقوقهم وإتماما للفائدة .

جهود الشيخ الطوسي الكبيرة في تشييد الفقه الإمامي

ومما تقدم تتضح بجلاء أهمية الجهود الكبيرة التي بذها الشيخ

(٣) الكسائي : علي بن حمزة بن عبد الله الأسدي الولاء الكوفي ، إمام اللغة والنحو والقراءة ، كان من أهل الكوفة ولد فيها قرأ النحو بعد الكبر ، مؤدب الرشيد العباسي وإبنه الأمين له تصانيف منه (معاني القرآن) والمصادر) توفي عن سبعين عاما .

(٤) من وجوه الشيعة وفتاويهم ولد عام (٤٠٠ هـ) لقب بالقاضي لكونه قاضيا في طرابلس الشام مدة عشرين أو ثلاثين سنة وكان خليفة الشيخ الطوسي في بلاد الشامية وله تصانيف منها جواهر الفقه والمهذب الكامل توفي عام (٤٨١ هـ) .

(٥) سلازل بن عبد العزيز الديلمي أبو يعلى (قدس سره) كان ثقة وجهاً ، له «المقنع» في المذهب ، و«التقريب» في أصول الفقه ، والمراسم ، والرد على أبي الحسين البصري في نقض الشافي ، والتذكرة في حقيقة الجوهر والعرض ، قرأ على المفيد وعلى السيد المرتضى قدس سرهما .

(٦) احد وجوه الشيعة وفقهائهم في حلب له مصنفات كثيرة منها غنية النزوع الى علمي الاصول والفروع .

الطوسي عليه السلام فهو يعتبر بحق خاتمة أعلام الدور الأول بتأليفه كتابيه (التهذيب والاستبصار) ومن أهم أعلام الدور الثاني بما ألفه من كتب الفتاوى الفقهية المختصرة والموسعة ، وأهمها (النهاية) بل وكذا الدور الثالث ، بتأليف كتابي (المبسوط والخلاف) وغير ذلك من الكتب الأصولية والكلامية والرجالية والمختصة بالتفسير والدعاء وباقي العلوم السائدة في عصره مما جعله عالما موسوعيا يندر وجود نظير له في أعلام الإسلام .

ومن ثم استحق بمجدارة أن يعد شيخ الطائفة ورفيع أعلامها في القرن الخامس الهجري مع الجلالة والعظمة في نفوس المخالفين ، حتى اضطرت الحاکم العباسي (القائم بأمر الله) إلى إعطائه كرسي الكلام اعترافا منه بأنه أفضل من يستحقه من علماء الإسلام في حينه ، ولعله لهذا تعرض كما سبق للاعتداءات الطائفية التي انتهت بكبس داره من الفوغاء المعتمدين على السلطة الجائرة وإحراق كتبه وكرسي الكلام مما دفعه للهجرة إلى النجف الاشرف .

تأسيس الشيخ الطوسي للحوزة النجفية

وبذلك اكتسبت النجف أهمية جديدة مضافا إلى أهميتها وقديستها لاحتضانها قبر سيد الأولياء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام واستطاع الشيخ عليه السلام بجهوده الخلاقة ومكانته المرموقة بين أعلام الطائفة المحقة ، باعتباره مرجعها العام في الأمور الدينية أن يؤسس الحوزة العلمية في النجف الاشرف حتى نمت بذرتها وترعرعت بإشرافه وتعاونه وأنت ثمارها البانعة على شتى العصور ، وقدم علماؤها وأبنائها من الخدمات الجليلة للإسلام والمسلمين ما يكون غرة في جبين الدهر ، ويستعصي على الحصر ، وستبقى كذلك بإذن الله تعالى مهما حاول أعداء الدين والحق على مختلف العصور ، وعلى مختلف السياسات والأنظمة من تحجيم دورها ، فكانت هجرة مباركة بكل ما للكلمة من معنى وقد خابت بذلك آمال الحكام الجائرين وأتباعهم العادلين عن الحق ، لانعكاس آثار سعيهم الفاشل عليهم ، فكانوا وكان الشيخ وكانت النجف الاشرف مصداقا

حقيقيا لقول الشاعر العربي

زعمت سخينة أن ستغلب ربه

وليغلبن مغالب الغلاب

وقد حاول الشيخ الطوسي عليه السلام جاهدا أن يربي جماعة من أهل العلم يخلفونه في حمل مشعل المعرفة بأمانة إلى الأجيال اللاحقة ، فكان عليه السلام مهوى أفئدة الأعلام ، ينهلون من غيره العذب ، وهو يفيض عليهم من معينه الرائق ما يصقل مواهبهم ، وينمي قابليتهم العلمية في شتى الميادين من فقه وأصول وحديث ورجال وتفسير وعقائد وأمالي متنوعة ، ما فتح أمامهم مجالات التحصيل الرحبة ، وتنمية ملكاتهم ، ليواصلوا المسيرة بنجاح منقطع النظير .

الركود النسبي للحركة الفكرية في النجف الاشرف

لكن الملاحظ ، والذي يستوجب وقفة تأمل أنه ما استكمل الشيخ الطوسي عليه السلام طعمته من هذه الدنيا الفانية عام (٤٦٠ هـ) إلا وقد توقف الفتح المبين الذي أحدثته مؤلفاته وأفكاره وجهوده الموسوعية ولم يستمر صعوده في الخط البياني للفقه الإمامي بل أصيب بشيء من الجمود استمر أكثر من قرن من الزمان فقد قال صاحب المعالم (الشيخ حسن بن الشهيد الثاني) نقلا عن والده في كتاب (الرعاية في دراية الحديث) : (إن أكثر الفقهاء الذي نشأوا بعد الشيخ كانوا يتبعونه في الفتوى تقليدا له لكثرة اعتقادهم فيه وحسن ظنهم به) ونقل عن السيد ابن طاووس عليه السلام قوله في كتاب (التهذيب) : (أخبرني جدي الصالح قدس الله روحه ورام بن أبي فراس^(١) : أن الحمصي^(٢) حدثه ، أنه لم يبق للإمامية مفت على التحقيق ، بل كلهم حاك) .

ونقل الشيخ الطهراني عليه السلام - صاحب الذريعة - عن الفقيه الشيخ أسد الله التستري (رح) في المقاييس قوله : (إن كثيرا ما يذكر مثل المحقق والعلامة أو غيرهما فتاواه يعني : الشيخ

(١) هو الامير الزاهد ورام بن ابي فراس من ذرية مالك الاشتهر وهو جد السيد ابن طاووس لانه له كتاب تنزيه الخواطر المعروف بمجموعة ورام .

(٢) هو الشيخ سديد الدين محمود بن علي بن حسن الحمصي الرازي من علماء الحلة المعروفين وقد صنف كتاب المنقذ من التقليد والمرشد الى التوحيد وتوفي عام (٦٠٠ هـ) .

(٣) هو اسد الله بن اسماعيل التستري ولد في (١١٨٦ هـ) من اعلام الامامية فقيه اصولي درس في كربلاء والنجف وسكن الكاظمية حتى توفي فيها عام (١٢٣٧ هـ) من مؤلفاته مقابس الانوار ومنهج التحقيق .

قال ابو عبد الله الصادق عليه السلام يقول : لا تقبلوا علينا حديثا إلا ما وافق القرآن والسنة ، أو تجدون معه شاهدا من أحاديثنا المتقدمة.

الطوسي من دون نسبتها إليه ، ثم يذكرون ما يقتضي التردد أو المخالفة فيها ، فيتوهم التنافي بين الكلامين . مع أن الوجه فيها ما قلناه .

أهم أسباب ركود الحوزة العلمية بعد وفاة الشيخ الطوسي

وقد يمكن إرجاع هذا الركود إلى سبب رئيس ، وسببين فرعيين .

فتوة الحوزة

أما السبب الرئيس فالظاهر أنه فتوة وحدثة التكوين العلمي للحوزة النجفية مما جعل الهوة الفاصلة بين ما وصلت إليه أفكار الشيخ الطوسي عليه السلام العلمية في شتى المجالات من نضج ، وبين أفكار الأعلام الناشئين على يديه في مدرسة النجف حديثة التكوين كبيرة جدا ، بحيث يصعب عليهم الخروج عن سلطان أفكاره ونظريات شيخهم العلمية ، فإن التاريخ لم يحدنا عن انتقال تلامذة الشيخ عليه السلام في بغداد أو غيرها إلى مهجره الجديدة في النجف الاشرف فكانه عليه السلام قد نجا بنفسه من محالب الفتنة وكأنه الهدف الأساس لمثيريها وانتقل وحده بعلمه إلى مأمته في حمى أمير المؤمنين عليه السلام فانصرف لتأسيس حوزة علمية فتية بكل ما تعنيه الكلمة ومن ثم لم يعرف تلامذته في النجف الاشرف إلا أحداث أصحابه عليه السلام وأشهرهم ، الحسين بن المظفر بن علي الحمداي ، والحسن بن الحسين بن الحسن بن بابويه القمي ، والشيخ حسن الطوسي (نجل الشيخ) .

أما الأول فقد ورد في ترجمته أنه قرأ على الشيخ جميع تصانيفه في الغري ، وهو يشهد بأنه تتلمذ عليه في خصوص النجف الاشرف إذ لم ينقل عنه انه قرأ شيئا منها عليه في بغداد . ولاسيما مع ملاحظة أن أباه المظفر كان من حضار درس الشيخ أيضا ، ومن قبله درس السيد المرتضى عليه السلام مما يعزز احتمال كون الابن من طبقة متأخرة من تلامذة الشيخ .

وأما الثاني : وهو الحسن بن بابويه القمي ، فالمعروف من

ترجمته أنه تتلمذ على ابن البراج ، وروى عن الكراجكي^(١) والصهرشتي^(٢) ، وهؤلاء كلهم من تلاميذ الشيخ الطوسي عليه السلام ، مما يعني أن الحسن كان من تلاميذ الشيخ المتأخرين ، لأنه تلميذ تلامذته ، كما أن نجل الشيخ أبا علي الحسن بن محمد الطوسي ، الذي تزعم الحوزة العلمية بعد وفاة أبيه كان شريكا في الدرس مع الحسن بن بابويه المذكور آنفا ، وقد عرفت قرب تأخر طبقتهم ، وأن أباه الشيخ عليه السلام قد أجازته عام (٤٥٥هـ) أي قبل وفاته بخمس سنين ، فإذا ضممنا إلى ذلك انه كان حيا في حدود عام (٥١٥هـ) كما يظهر من كتاب بشارة المصطفى على ما يذكره جملة من الأعلام نستنتج انه عاش بعد إجازة أبيه له حوالي ستين عاما ، مع أنه لم يعرف كونه من المعمرين ، فلا بد أنه كان حدث السن عند هجرة أبيه إلى النجف الاشرف ، وأنه تسنم الزعامة العلمية وهو في سني شبابه .

ولا يبعد أن يكون أحد مناشيء ذلك اعتبار أعلام الحوزة له امتدادا لشيخهم أبيه ، فيكون في تقديمهم إياه عليهم نحو من الوفاء لشيخهم العظيم مع أنهم أقرانه في التحصيل العلمي مضافا إلى مؤهلاته العلمية الكافية لتبوءه لهذا المنصب السامي ، ونبوغه المبكر حتى سمي إجلالا له بالمفيد الثاني تشبيها له بأستاذ الكل الشيخ المفيد عليه السلام .

كل ذلك يعني حداثة تكون الحوزة العلمية النجفية ، ومن الطبيعي جدا أن لا يكون للحوزة الفتية ذلك المقدار من النضج والعمق الذي يجعلها تتفاعل مع آراء الشيخ المؤسس لتتقدمها سلبا أو إيجابيا فبقيت تدور في فلك أفكاره ولم تستطع التخلص من سلطان آرائه .

وأما باقي أعلام تلامذة الشيخ عليه السلام في بغداد أو غيرها ممن

(١) محمد بن علي بن عثمان الكراجكي ، أبو الفتح شيخ فقيه جليل من مشايخه المفيد وسلاح ، السيد المرتضى . ويروي عنه القاضي بن براج . له كتب منها (كنز الفوائد معدن الجواهر) والكراجكي نسبة إلى (كراجك) قرية على باب واسط توفي سنة (٤٩٩هـ) .

(٢) الصهرشتي : أبو الحسن سليمان بن الحسن ، فقيه وجه دين قرأ على الشيخ الطوسي والسيد المرتضى وله عدة تصانيف منها كتاب النفيس كتاب المتعة كتاب التشبيه كتاب النوادر وغيرها .



عندهم نحو من النضج الذي يسهل عليهم التفاعل مع أفكاره فلم يلتحقوا به ومن ثم أثر ذلك كثيرا حتى على النتاج الفكري للشيخ عليه السلام نفسه فإنه لم يثبت عنه أنه أنتج شيئا جديدا في الفقه في مهجره الجديد مع أنه قد بقي فيه حوالي اثنتي عشرة سنة . فلا يبعد أنه عليه السلام كان يلقي ما سبق له الوصول إليه من علوم في الفقه والأصول والحديث والرجال والتفسير والكلام على تلامذته كما عرفت من حال تلميذه الحسين بن المظفر الحمداي مكونا بذلك المدارك الأساسية لحوزة علمية ستأخذ على عاتقها إيصال شعلة الفكر الإمامي في هذه العلوم وغيرها إلى الأجيال العلمية اللاحقة (وفرق كبير بين المبدع الذي يمارس إبداعه العلمي داخل نطاق الحوزة ويتفاعل معها باستمرار وتواكب الحوزة إبداعها بوعي وتفتح ، وبين المبدع الذي يمارس إبداعه خارج نطاقها وبعيدا عنها)^(١) .

ولهذا فقد استمر الركود الظاهري للعلم حوالي قرن من الزمان حتى نبغ من الأعلام من استطاع التفاعل الخلاق مع أفكار الشيخ عليه السلام بل ما يوازئها نضجا وعمقا كما ستعرف فيما يأتي .

مكانة الشيخ العلمية المرموقة

وأما العاملان الفرعيان المؤثران في الركود العلمي ، فالأول : يمكن إرجاعه إلى المكانة العلمية المرموقة التي احتلها الشيخ المؤسس للحوزة العلمية والتي قد تصل لحد التقديس في نفوس أعلام أتباعه ، المستندة لمواهب الشيخ المتعددة الشاملة لأنحاء المعرفة في شتى العلوم السائدة في ذلك العصر مضافا إلى مركزه الديني كمرجع أعلى في مسائل الشريعة مع كمال التدين والالتزام بالأخلاق الحميدة وما حباه الله تعالى به من هيبة وعزة لأنه خرج من ذل معصية الله إلى عز طاعته . أضف إليها نظرة التعظيم حتى من العلماء المخالفين للشيخ في العقيدة والمذهب مما جعل له سورا أو حمى يصعب اقتحامه إجلالا واحتراما فكان هذا

(١) المعالم الجديدة للأصول ص : ٦٦ .

الجانب العاطفي المتأثر بأفكار الشيخ الناضجة المقترنة بتجديده وموسوعيته في أكثر العلوم المعروفة في وقته سدا منيعا يفيق عن التفكير باحتيازه وعبوره . ومعنى ذلك تغلب النزعة العاطفية على النزعة العلمية التي تقتضي ملاحظة أفكار الشيخ والتفاعل معها وبالتالي تحييصها للراقي بها إلى أعلى مراتب الكمال .

لكن الظاهر ارتباط هذا العامل الفرعي بالعامل الرئيسي المتقدم ، فإن من يرى في نفسه الأهلية الكاملة المصحوبة بالورع لتحري الحقيقة في أفكار الآخرين لا تحول دون تحقيق مرامه هالات التقديس والاحترام ، مهما كان لصاحبها من المكانة الجليلة في النفوس لعدم تعارض تحييص آراء أي شخص مع تقديره واحترامه وإحلاله المحل اللائق به وتقدير جهوده ولاسيما إذا كان له حق الريادة أو الأستاذية على ناقيه .

ومن ثم نرى بوضوح أن أعلامنا المتأخرين عليه السلام لا يتوقفون عن الاعتراض على أي مطلب لمن سبقهم من الأعلام بالنقد والتمحيص ، لتحقيق الحق ، مع إعطائهم حقوقهم من التنبيل والتقدير بما هم أهله ، ولذا يطلقون عليهم نعوت التعظيم والإجلال مع مخالفتهم لهم أحيانا فيما ينتهون إليه من آراء ، فهذا ثقة الإسلام ، وهذا الصدوق ، وهذا المفيد أو شيخ الكل ، وهذا المرتضى أو علم الهدى ، وهذا الرضي وهذا الشيخ أو شيخ الطائفة وهذا المحقق ، وهذا العلامة على الإطلاق وهذا الشهيدان والمحققان والفاضلان ، وأمثال ذلك من الألقاب والأوصاف مما هم أهل لها وزيادة .

وبالجمل : نظرة التقديس والاحترام لا تقف حائلا أمام من يرى في نفسه الأهلية لإبداء رأيه في آراء الآخرين ، ومن ثم قد يتهم بعضهم نفسه حملا للأعلام السابقين له على صحة في عدم الوصول لحقيقة مرادهم . وهذا ما يميز طلاب الحق عن غيرهم في سائر العصور . فلا بد من رجوع ترك نقد آراء الشيخ عليه السلام ، والدوران في فلكه ، إلى عدم شعور من جاء بعده بالاستقلال التام ، الذي يعطي صاحبه الحرية التامة في اختيار ما يراه حقا ، مستدلا عليه بما يصلح للدليلية في نظره ، ونبذ ما لم يستكمل شرائط الصحة . نعم قد يكون التقديس والاحترام العلمي عاملا مساعدا في عدم إحساس الشخص باستقلاله في النظر في مقابل شيوخه .

روى أحمد بن إسحاق عن أبي الحسن الهادي عليه السلام قال : سألته وقلت : من أعمال؟ وعمن أخذ؟ وقول من أقبل؟ فقال عليه السلام : العمري ثقتي - يعني : عثمان بن سعيد - أول النواب الأربعة - ... فإنه الثقة المأمون ، قال وسألت أبا محمد عليه السلام عن مثل ذلك فقال : العمري وابنه .. فإنهما الثقتان المأمونان .

قلة الاحتكاك بالأفكار المخالفة

وأما العمل الفرعي الثاني ، فهو قلة الاحتكاك بأفكار المذاهب الأخرى لفقهاء العامة ، أو انعدامه ، فإن الشيخ الطوسي عليه السلام عند وجوده في بغداد كان كثير الاحتكاك بهم ، خصوصا مع كون فقههم هو المعمول به عند الحاكمين مما دعاه إلى تأليف كتابيه (الخلاف) و (المبسوط) وبعد هجرته إلى النجف الأشرف انقطع هذا التواصل ومن المعلوم أن الاحتكاك بأفكار المخالفين يعطي قوة دفع للأفكار الحقّة ويجعلها أكثر نضجا وعمقا ، لسعي كل طرف لسد ما يحتمل أن يكون ثغرة توجب طعن المخالف مع محاولة إبطال آراء المخالفين ، فيكون كالسيف ذي الحدين ، مما يكسب الأفكار سعة وعمقا وشمولا ترجع بالفائدة على أصحابها .

مضافا إلى وقوف حركة العلم والاجتهاد عند الفقهاء العامة ، وذلك لأنه العصر الذي وافق غلق أبواب الاجتهاد عندهم ، وحصرتها بالمذاهب الأربعة المعروفة . فعن الغزالي^(١) المتوفى عام (٥٠٥ هـ) المطابق لعصر الركوند العلمى - وهو في مقام الحديث عن شروط المناظرة في البحث ، قوله : (أن يكون المناظر مجتهدا يفتي برأيه لا بمذهب الشافعي^(٢)) وأبي حنيفة وغيرهما ، حتى إذا ظهر له الحق من مذهب أبي حنيفة ، ترك ما يوافق رأي الشافعي ، وأفتى بما ظهر له . فأما من لم يبلغ رتبة الاجتهاد وهو حكم كل أهل العصر فأبي فائدة له في المناظرة^(٣)

بل إن تعرض بغداد - وهي المركز العلمي المرموق عندهم - للهزات السياسية الناتجة عن ضعف الخلافة العباسية ، وبعد ذلك

(١) أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الطوسي قيل لم يكن للشافعية في آخر عصره مثله وكتبه معروفة منها البسيط والوسيط والوجيز والخلاصة في الفقه وشرح الأسماء الحسنی ، والمنقذ من الضلال ، وإحياء علوم الدين وتوفي سنة (٥٠٥ هـ) .

(٢) محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة له تصانيف كثيرة أشهرها كتاب (الأم) في الفقه (الرسالة) في أصول الفقه وغيرها توفي بمصر اخر رجب سنة (٢٠٤ هـ) بالقرافة الصغرى .

(٣) المعالم الجديدة للأصول ص : ٦٧ .

للفتنة المغولية ، التي قضت على آخر معالم الخلافة العباسية ، أوجب تفرق العلماء ، بل مقتل كثير منهم على أيدي المغول مما أدى إلى وهن الحركة الفقهية والعلمية عامة عند فقهاءهم فلم يعد للفقه السني تلك القوة من الدفع التي توجب تأثر الفقه الشيعي به سلبا أو إيجابيا .

عوامل تطور الفقه الإمامي

لكن ذلك التأثير السلبي على الفقه الشيعي لم يدم طويلا لأنه :

(أولا) : غير مرتبط بالسلطات الحاكمة حتى يؤثر ضعفها في ضعفه ، بل هو فقه الفئات المحرومة من الشعوب الإسلامية ، والمضطهدة من قبل الحكام الجائرين .

(وثانيا) : أن التشيع أخذ ينتشر ويكثر معتنقه بمرور الزمن ، ومن ثم كثرت الحاجة إلى تفرعات الأحكام الشرعية ، لأن كثرة الابتلاءات وتنوعها توجب على الفقهاء أن يلتمسوا لها الحلول الشرعية المطابقة لأصول المذهب الحق .

(وثالثا) : إبقاء أبواب الاجتهاد مفتوحة عند فقهاء الإمامية ، نتيجة عدم خضوعهم فكريا لقرارات الحكام المستبدين ، إذ ان غلق أبواب الاجتهاد عند العامة إنما كان بقرار من حكامهم ، كما هو مذكور في التاريخ .

ولهذا استمر الفقه الامامي في صعوده نحو التائق والتوسع والترقي في مدارج الكمال الفكري في حين انطبع الفقه السني بطابع الجمود والتوقف حتى العصور الحالية ، فإن أغلب مؤلفاتهم تدور في إطار المذاهب الأربعة المعروفة وإن ظهرت أخيرا بعض الدعوات إلى إعادة فتح أبواب الاجتهاد وهذا تعرف أن هذا العامل وإن أثر سلبا على فو الفقه الشيعي الإمامي ، إلا أن أثره كان مؤقتا ، بل استمر الفقه الإمامي في الانفتاح على الفقه السني بملاحظة ممارسة جملة من أعلام الإمامية لعملية الغزو الفقهي والعقائدي لبعض مراكز الفقه السني المهمة كما صنع العلامة الحلي عليه السلام على ما تأتي الإشارة إليه فكان ذلك عاملا مهما في إثارة الفكر الامامي وداعيا لدراسة الفقه السني ودراسة



مقارنة بأوسع مما صنع الشيخ الطوسي عليه السلام لبيان مواضع الخلل فيه للنفوذ منها إلى إبطال أصول مذاهبهم ، وبيان أحقية المذهب الامامي بالإتباع ومن ثم ألف العلامة الحلي عليه السلام كتابه الجليل (تذكرة الفقهاء) بل وكذا كتاب (المنتهى) في الفقه المقارن ، كما سبق بيان ذلك وهذا بخلاف تأثير غلق أبواب الاجتهاد السليبي ، ووقوف حركة العلم على الفقه السني ، فإنه استمر إلى يومنا هذا كما تشهد به مؤلفاتهم فلا تعدو في أغلبها كونها اجترارا لآراء فقهاءهم المعروفين .

في حين استطاع الفقه الإمامي تجاوز الركوند العلمي الذي خيم عليه نتيجة الأسباب المتقدمة : الرئيسة أو الفرعية فقد استعاد صحوته الفكرية بجهود جملة من أعلامه في أواخر القرن السادس الهجري

تأثير ابن إدريس الإيجابي في تطور الفقه

وقد بدا ذلك واضحا عند أحد أعظم فقهاء هذا العصر وهو الفقيه المبدع الشيخ محمد بن إدريس العجلي عليه السلام (٥٤٣ هـ - ٥٩٨ هـ) في كتابه الجليل (السرائر) فقد جاء في مقدمته قوله عليه السلام - كما حكى عنه - : (إني رأيت زهد أهل هذا العصر في علم الشريعة المحمدية ، والأحكام الإسلامية ، وتناقلهم عن طلبها ، وعداوتهم لما يجهلون ، وتضييعهم لما يعلمون ، ورأيت ذا السن من أهل دهرنا هذا - لغلبة الغباوة عليه - مضيعا لما استودعته الأيام ، مقصرا في البحث عما يجب عليه عمله ، حتى كأنه ابن يومه ، ومنتج ساعته ورأيت العلم عنانهُ في يد الامتهان ، وميدانه قد عطل منه الرهان ، تداركت منه الذمائم^(١) الباقي ، وتلافت نفسا بلغت التراقي^(٢) .

وهذا النص ، وإن كان فيه شيء من القسوة إلا أنها قد تكون ضرورية أحيانا ويكون لها وظيفة الصدمة الكهربائية العلاجية ليتم بها إيقاظ الغافلين عما يؤدي إليه الركوند العلمي أو الاسترسال في متابعة المشايخ من دون بذل جهد علمي ذاتي

(١) الذمائم بقية الروح في المذبح .

(٢) المعالم الجديدة للأصول ص : ٦٩ .

في تحقيق ما ذهبوا إليه من آراء لقبول الصحيح ونبذ السقيم من نتائج سيئة تنعكس سلبا على الفكر وتعيقه عن الوصول للحقيقة التي هي ضالة المؤمن .

ومن ثم كان يحشد في المسألة التي يخالف فيها الشيخ عليه السلام أو بعض المشهورين من الأعلام جملة مما يصلح أن يكون أدلة لهم ثم يبدأ بمناقشتها الواحد تلو الآخر حتى ينتهي إلى مختاره . وكأنه قد وضع نصب عينيه ما قد يوردون به عليه ، تحسبا منه لذلك ، فيدفعها بأجمعها . وقد يسلك أحيانا طريق المداراة والمجاملة للأفكار السائدة فيوجه كلام الشيخ الطوسي عليه السلام بما لا يتنافى وما ينتهي إليه من رأي وإن كان مخالفا له في النتيجة فهو مثلا يفتي في مسألة الماء النجس المتمم كرا بالطهارة ، بخلاف المعروف من رأي الأكثر ، ومنهم الشيخ ، يحاول أن يقرب من موافقة الشيخ له في ذلك ، فيقول : (فالشيخ أبو جعفر الطوسي - الذي يتمسك بخلافه ويقلد في هذه المسألة ، ويجعل دليلا يقوي القول والفتيا بطهارة هذا الماء في كثير من أقواله ، وأنا أبين إن شاء الله أن أبا جعفر تفوح من فيه رائحة تسليم هذه المسألة بالكلية إذا تؤمل كلامه وتصنيفه حق التأمل ، وأبصر بالعين الصحيحة ، واحضر له الفكر الصافي)^(٣) فهو لا يحاول فقط أن يجعل الشيخ إلى صفه ، بل يتهم غيره بأنهم لم يعطوا كلام الشيخ حقه من التأمل وهذه الوسيلة غاية في الإقناع .

والتأمل في كتابي (المبسوط) للشيخ عليه السلام و(السرائر) لابن إدريس عليه السلام يجد الفرق الواضح في التوسع في الاستدلال ، وكثرة الأدلة ، أو ما يحتمل أن يكون دليلا ، فالشيخ لم يزد في بحث المسألة المذكورة في مبسوطه ، وبيان رأيه فيها ، على سطر واحد ، بينما بحثها في السرائر بما يقرب من صفحة ، مستعرضا الأدلة له وعليه بشيء من التفصيل والعمق . بل قال - كما نقل عنه - في ختام بحثه فيه : (ولنا في هذه المسألة متفردة نحو من عشر ورقات ، قد بلغنا بها أقصى الغايات وحججنا القول فيها ، والأسئلة والأدلة والشواهد من الآيات والأخبار^(٤) .

ثمرة حركة ابن إدريس العلمية

وهذا الجهد العظيم ونحوه هو الذي فتح المجال لمن بعده من

(٣) المعالم الجديدة للأصول ص : ٧٤ .

(٤) المعالم الجديدة للأصول ص : ٧٢ .

الدور الثاني دور التصريح ، يعني بداية عملية الاجتهاد - بمفهومها الواسع - المعتمدة على الاستقصاء والفحص ، وإعمال النظر والترجيح ، لاختيار ما يراه صاحبه حقا .

الأعلام في إعادة النظر في آراء الشيخ عليه السلام وغيره من معاصريه أو المتقدمين عليه ومن ثم انبرى له المحقق الحلي (الشيخ جعفر بن الحسن بن يحيى بن سعيد) ومن بعده تلميذه العلامة الحلي (الحسن بن يوسف بن المطهر وغيرهما من الأعلام في تفنيد آرائه والدفاع عن آراء الشيخ عليه السلام أو محاولة التوحيد بين آرائهما أو اختيار غيرها . وهكذا انفتح الباب على مصراعيه أمام الأعلام الذين جاؤوا بعد ذلك للنظر فيما ادعي أنه من المسلمات أو المشهورات من الآراء الفقهية ، واستمر الصراع العلمي في ميادينه الفسيحة حتى بلغ البحث العلمي مرحلة عالية من النضج والعمق والأصالة فجزى الله تعالى العاملين فيه بإخلاق أفضل جزاء المحسنين .

وهكذا فإن التوقف النسبي للفقه الإمامي بعد وفاة الشيخ الرائد عليه السلام لم يكن إلا لكي يستجمع قواه ويواصل نموه بالارتفاع إلى مستوى التفاعل مع آراء الشيخ الطوسي عليه السلام بل ما يوازها أو يتفوق عليها كما يلاحظ ذلك في المؤلفات الفقهية لأعلام هذا الدور وما بعده .

عوامل النمو الذاتي في الفقه الامامي

ومن جميع ذلك نعرف أن الفقه الإمامي الشيعي - كان وما يزال - يمتلك عوامل النمو الذاتي ، لأنه مستقى من منابع الأصيلة للتشريع الإسلامي ، المتمثلة بالنبي صلى الله عليه وآله وخلفائه الأئمة المعصومين عليهم السلام ، وسعي فقهاء عليهم السلام الحثيث نحو تحقيق الحق وإبطال الباطل ، وانفتاحهم على سائر المدارس الفكرية الأخرى ، من دون تقليد أعمى فيما وصلوا إليه ، بل يأخذون منها ما يوافق أصول مذهبهم الحق ، ويترجون الباقي . كما يمتلك الفقه الإمامي عوامل النمو الخارجي ، المتمثلة بالعلاقات الوطيدة المبنية على الثقة العالية القائمة بين الفقهاء والشيعية ، المتزايدة عددا ، والمتنشرين في كثير من الأقطار الإسلامية وغيرها ، حيث يبذلون أقصى جهودهم المشكورة لإيجاد الحلول الفقهية لمشاكلهم المتعددة المتزايدة بمرور الأيام بما يكون متوافقا مع الخطوط العامة لمدرسة أهل البيت عليهم السلام .

استقطاب الحلة للنشاط العلمي

ما أن انتقل الشيخ الطوسي عليه السلام إلى الرفيق الأعلى ، حتى تسنم ذروة زعامة الحوزة العلمية النجفية نجمله (الشيخ أبو علي الحسن بن محمد) فاستقل الفتيا والتدريس خلفا لأبيه الراحل ، وقد التفَّ حوله جملة من تلامذة أبيه الشيخ وغيرهم ، لأنه - كما يقول ابن حجر - : [فقيه الشيعة وإمامهم بمشهد علي عليه السلام .] إلا أن الظاهر من حاله عليه السلام دورانه في فلك أبيه العلمي ، إذ لم يعرف له آراء مستقلة عنه في الفقه ، ولم يشتهر له مؤلف علمي خاص به ، سوى شرح كتاب (النهاية) لأبيه الشيخ عليه السلام وإن عرف بالمفيد الثاني ، تشبيها له بشيخ أبيه ، وشيخ الكل ، محمد بن محمد بن النعمان المفيد عليه السلام . كما إن إليه تنتهي أكثر الإجازات في الرواية . مع أنه استمر في تصدر الحركة العلمية زهاء ستين سنة بعد وفاة أبيه الشيخ الرائد ، فقد استظهر جماعة من مترجميه -استنادا إلى بعض عبارات كتاب (بشارة المصطفى) وجوده في عام (٥١٥هـ) كما تقدم . إلا أن بعض الباحثين ذكر أنه استعرض نفس الكتاب ، فلم يثبت له إلا وجوده عام (٥١١هـ) ^(١) .

وكيف كان فالظاهر أنه لم يكن له دور مؤثر في الحوزة العلمية النجفية أكثر من شرح أفكار أبيه الشيخ عليه السلام ، وأنه حلقة وصل بين القدماء والمتأخرين . وبعد انتقاله إلى رحمة ربه ، قام ولده الشيخ أبو ناصر محمد بن أبي علي الحسن الطوسي عليه السلام مقامه الزعامة العلمية .

وقد ظهر بعد هذه الفترة الفقيه المجدد الشيخ محمد بن إدريس العجلي عليه السلام (٥٤٣ - ٥٩٨هـ) في الحلة الفيحاء ، ولما عرف عنه استقلاله العلمي ، ومحاولته التفاعل مع أفكار الشيخ الطوسي العلمية ، بتعريضها للتمحيص ، وأثبت قدرته على الخروج عن

(١) لسان الميزان ج ٢ ص ٢٥٠ .

(٢) الشيخ الطوسي الدكتور حسن الحكيم ص ١٨٤ .

(٣) هو أبو علي الحسن بن محمد بن الحسن بن علي الطوسي كان عالما فاضلا فقيها محدثا جليلا ثقة له كتب منها كتاب الامالي وشرح النهاية وغير ذلك وقرأ على والده جميع تصانيفه .



سلطانها ، وإن شابهها شيء من القسوة أحيانا ، فوجد فيه الطلاب المعرفة ، والباحثون نحو الحقيقة القابلية لنقد أفكار الشيخ ، أو من سبقه من الفقهاء ، فاستطاع أن يلفت إليه الأنظار - والناس مولعة بكل جديد - فالتفَّ حوله الأعلام لينتهلوا من نغمه ، ويقارنوا بين ما جاء به هو وبين ما جاء به من سبقه ، فوجدوه أهلا للقيام بهذه المهمة الشاقة ، ويكفي شاهدا على ذلك ما في لسان الميزان لابن حجر : انه فقيه الشيعة وعالمهم ، وله تصانيف في فقه الإمامية ، ولم يكن للشيعة في وقته مثله ^(١) .

ولعله إنما سلك هذه الطريق الوعرة ليس لتوهين آراء الشيخ عليه السلام ، بل لأنه وجد أن كثرة التعريض بها تفتح الباب لمحاكمتها ، للنجاة من الوقوع في مهاوي التقليد الأعمى للشيخ أو لغيره من الأعلام ، وإلا فمن البعيد جدا أنه كان سيء القصد في محاولته المذكورة ، بشهادة أنه كان يستحسن كثيرا تفسيراً التبيان للشيخ ، مما حدا به إلى اختصاره اعتزازا به ، فاشتهر عنه تأليفه لمختصر التبيان في تفسير القرآن ، وليس هو إلا ذاك ومع ذلك ، فإن التعرض لآراء الغير بالنقد التزيه البناء لا يعني بأي حال الانتقاص منها ، بل على العكس تماما ، فإنه قد يكون مدعاة لإعادة النظر فيها ، وتحري مواطن القوة والضعف للنظر فيها ، أو لغيره ممن يأتي بعده ومن ثم كانت طريقة العلماء اللاحقين له من تلامذته أو تلامذتهم مستمرة على تعقيب إيراداته على الشيخ محاولين تفنيدها ، أو تصحيحها ، كما كثرت من المحقق الحلي والعلامة عليه السلام ، مما ساعد كثيرا على اقتحام حاجز تقديس آراء الشيخ عليه السلام وإعطاء الفقه دفعه قوية للتقدم في مضمار الكمال .

نظرة إنصاف لابن إدريس

هذا وقد رمى ابن داود ^(٢) في رجاله ابن إدريس مع وصفه إياه بأنه كان شيخ الفقهاء بالحلة ، متقنا في العلوم ، كثير التصانيف -

(١) لسان الميزان ج ٥ ص ٦٥ .

(٢) هو الشيخ تقي الدين الحسن بن علي بن داود الحلي كان عالما فاضلا جليلا صالحا محققا له تصانيف كثيرة من جملتها (كتاب الرجال) .

بأنه أعرض عن أخبار أهل البيت عليهم السلام بالكلية ^(٣) .

ولا أدري كيف يكون شيخ الفقهاء مع إعراضه عن أخبار أهل البيت عليهم السلام ! ولا يبعد أن يقصد بذلك ما عرف عن ابن إدريس من أنه لا يرى حجية أخبار الآحاد . لكنه ليس بدعا في ذلك ، فقد سبقه إليه السيد المرتضى وابن زهرة والشيخ الطبرسي ^(٤) (صاحب تفسير مجمع البيان) . إلا أنه - لو تم - لا يعني إعراضه عن أخبارهم عليهم السلام بالكلية ، إذ لعله كالمترضى يرى احتقاف أكثر أخبارنا بقرائن تفيد العلم بالصدور . وهذه الدعوى مشكلة جدا ، وتحتاج إلى إثبات ، ويكفي في تفنيدها - وإن صدرت من أي أحد - عدم إمكان تأليف كتاب جامع الفقه لا يعتمد إلا على مقطوع الصدور : من الآيات الشريفة والأخبار المتواترة ، أو المحفوفة بالقرائن القطعية . لأن ذلك قليل جدا بالقياس إلى الأحكام الشرعية الكثيرة المتنوعة ، كما يظهر بأدنى مراجعة لكتب الاستدلال .

فلا بد من رجوع تلك الدعوى إلى اعتقاد وجود الشواهد العامة على صدور الأخبار الشريفة من المعصومين عليهم السلام في سائر أبواب الفقه ، وإن كان أكثرها لا يخرج عن كونه أخبار آحاد . إذ من البعيد جدا أن يدعي ابن إدريس ، أو غيره من القائلين بذلك ، إن جميع الأخبار التي استدلت بها في سرائره قطعية الصدور ، كيف وقد ذكر هو عليه السلام في خاتمة كتابه جملة من الأخبار التي استطرفها من كتب أصحاب الأئمة عليهم السلام وغيرهم ، وهي لا تخرج عن كونها أخبار آحاد وقد سماها الفقهاء بـ (مستطرفات السرائر) ، ولهم إشكال معروف في حجية تلك الأخبار إذ لم يحرز اتصال أسنادها بالمعصومين عليهم السلام ، كما هو الحال في سائر أخبار الآحاد .

وبالجملته : لم يتضح لي الوجه الصحيح في كلام ابن داود المتقدم عن ابن إدريس (رضي الله عنهما وأرضاهما) .

هذا وقد أثرت جهود ابن إدريس عليه السلام في الثورة على الجمود الفقهي ، ويكفي شاهدا على ذلك وجود جملة من

(٣) الرجال : القسم الثاني ص : ٤٥ .

(٤) هو المفسر الكبير ابو الفضل الحسن ابن الفضل الطبرسي المعروف بامير الاسلام ترك الكثير من الآثار والمصنفات لكن ما وصل إلينا منها هو عشرون فقط اشهرها مجمع البيان في تفسير القرآن ، توفي عام (٥٤٨هـ) في مدينة بيهق ثم نقل جثمانه الى مدينة مشهد المقدسة ودفن الى جوار الامام الرضا عليه السلام .

تميز الدور الثالث (دور النضج) بالبحث الفقهي المقارن المبني على استعراض أقوال المشهورين من علماء العامة، ومقارنتها بما عند علمائنا، واختيار الأوفق بالأدلة والأصول المسلمة فقد ألف الشيخ الطوسي رحمته الله كتاب (الخلافة)، الذي تناول فيه المسائل الفقهية وتعرض لآراء العامة والخاصة بشكل موسع نسبياً.

العلامة الحلي وجهوده المشكورة

ولعل أهم من أنتجته مدرسة الحلة الفقهية وهو العلامة الحلي رحمته الله (٦٤٨ - ٧٢٦ هـ) فهو حلي النشأة منذ نعومة أظفاره، وكانت عمدة استفادته العلمية من أبيه المشتهر بابن المطهر والسيد ابن طاووس وخاله المحقق الحلي وهذا لا يعني انحصار أساتذته بهؤلاء الأعلام، بل إن أغلب استفادته منهم، فقد حضر في الفلسفة والكلام على المحقق نصير الدين الطوسي رحمته الله (٣)، وحضر المحقق عليه في الفقه، كما حضر على غيره من أعلام الخاصة والعامة ومن ثم كانت ثقافته موسوعية مع تميزها بالعمق والشمول لأكثر المعارف السائدة في عصره.

وقد ألف جملة من الكتب الفقهية المختصرة والمطولة أشهرها (قواعد الأحكام) و (المختلف) الذي جمع فيه أقوال علمائنا على اختلافها، وكتب (التحرير) و (التبصرة) وغيرها. وفي الفقه المقارن كتابه القيم (تذكرة الفقهاء) الذي يقع في مجلدين كبيرين، استوعب في أقوال العامة والخاصة بأمانة، وحاكمها بصبر وترو، بروح العالم الباحث عن الحق من دون تعصب. وكذا كتابه الآخر (منتهى المطلب في فقه المذهب) الذي وصفه رحمته الله فأطراه وأثنى عليه كثيراً ولا يزال كتاباه المذكوران بضميمة كتاب (الخلافة) للشيخ الطوسي المرجع الرئيسي للأعلام في هذا الباب.

كما حظي كتاباه المختصران في الفقه (تبصرة المتعلمين) و (إرشاد الأذهان) بعدد من الشروح المختصرة والمطولة، مما هو مذكور في فهراس الكتب العلمية.

أهمية كتاب القواعد وشروحه

لكن الذي فاز بالقدح المعلى من اهتمام الفقهاء كتابه القيم (قواعد الأحكام) فقد شرحه جملة من الأعلام ولعل أقدمهم

(٣) محمد بن محمد بن الحسن القمي الطوسي سلطان العلماء والمتكلمين ولد عام (٥٩٧ هـ) في طوس وتوفي في يوم الغدير عام (٦٧٢ هـ) ودفن في جوار الامامين الكاظمين وهو المعروف بالخواجة من ابرز مصنفاته تجريد الاعتقاد في العقائد وغيرها في الهيئة والرياضيات والحكمة.

الأعلام المشار إليهم بالبنان، أمثال المحقق الحلي، ويوسف بن المطهر، وابنه العلامة الحلي، والسيد بن أبي طاووس، وابني نما، وابن داود، وأبي الفوارس (١)، وابن معية (٢)، وفخر المحققين - ابن العلامة - والشهيد الأول (رض الله عنهم) وأضرابهم، الذين كانت لهم اليد الطولى المشكورة في إتخاف الفقه الشيعي الإمامي بكثير من وسائل الإدامة والترقي، لما تميزت به مؤلفاتهم من تحقيقات علمية نافعة، لكونها حلقة الوصل الوثيقة بين قدماء الأصحاب ومتأخريهم.

تأثير المحقق الحلي الايجابي في الفقه

وقد اشتهر كتاب المحقق الحلي (شرايع الإسلام) في هذه الفترة، لما تضمنه من كثرة المسائل الفقهية وتنوعها وحسب تبويبها، فقد جعله رحمته الله في أقسام أربعة: العبادات والعقود والإيقاعات والأحكام، بما يشتمل عليه كل قسم من تفرعات أعطت للكتاب أهمية كبرى، حيث أصبح موضع عناية الأعلام المتأخرين عنه، ناسخاً بذلك الدور الذي كان يحتله كتاب (النهاية) للشيخ الطوسي رحمته الله. وقد حظي بشروح واسعة ومختصرة كثيراً بما لم يحظ به أي كتاب مشتمل على المتنون الفقهية من مؤلفات فقهاءنا الأعلام رحمته الله. وللمحقق رحمته الله أيضاً عدة كتب أخرى في الفقه وأصوله، أهمها: (المختصر النافع) وهو خاص بالمتون الفقهية. و (المعتبر) وهو كتاب استدلاي في الفقه مشتمل على تحقيقات وفوائد جمة، تمثل وما وصل إليه العلم من تطور ونضج يناسب هذه المرحلة، وله أيضاً (المعارج) في أصول الفقه. ويظهر للمتأمل تأثير الشيخ الطوسي رحمته الله في مؤلفات المحقق الفقهية والأصولية، وإن كانت تتمتع بنحو من العمق قد لا يوجد في كتب الشيخ المماثلة.

(١) مجد الدين ابو الفوارس محمد بن علي الاعرج عالم فاضل محقق جليل القدر يروي عن ابن معية وقد تتلمذ على يد العلامة الحلي وابيه من قبل.

(٢) قال الحر في تذكرة المتبحرين السيد تاج الدين ابو عبد الله محمد بن القاسم بن معية الحسيني الديباجي فاضل عالم جليل القدر شاعر اديب.



دور شرح اللمعة في تطور الفقه

وتمتاز مؤلفاته بالدقة وحسن البيان، وأشهرها (الذكرى) و (الدروس الشرعية في فقه الإمامية) و (غاية المراد في شرح نكت الإرشاد) وغيرها. وقد قدر لكتابه المختصر القيم (اللمعة الدمشقية) من التوفيق والانتشار والمدارس ما يندر حصوله لمثله وذلك لاشتماله - على اختصاره - على أكثر الفروع الفقهية، والتي يعطي استيعابها وهضمها قدرة فائقة تمكن صاحبها من الإحاطة بالمسائل التي يكثر الابتلاء بها لعامة الناس.

وقد ازداد هذا الكتاب الجليل أهمية على أهميته بعد أن شرحه الشيخ زين الدين الجبعي العاملي المشهور بالشهيد الثاني (٩١١ - ٩٦٦ هـ) وسماه (الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية). فقد أصبح مضافاً إلى كونه من المصادر الفقهية، من الكتب الدراسية التي لا بد لطلاب الفقه من استيعابها. وقد كثرت حول الشروح والحواشي الكاشفة عن أهمية الكتاب، فهو وسط بين الفتوى والاستدلال، معتمداً على القواعد النظرية والفقهية وجملة من كلمات الأصحاب، مع الإشارة والأحاديث الشريفة وبعض النكات الرجالية الأصولية واللغوية المتصلة بالبحث.

هذا وبقيت مدرسة الحلة مركزاً مهماً لنمو الفقه الإمامي لأكثر من قرنين من الزمان، وما ذكرناه إنما هو من باب المثال لا الاستقصاء. وأكد أكون مطمئناً بأن سبب انتقال نشاط الحوزة العلمية - مضافاً إلى نبوغ الفقيه الفذ ابن إدريس رحمته الله فيها - تعرض بغداد للسقوط على أيدي التتار، حيث انتهت دولة الخلافة العباسية، مع تمتع الحلة بنوع من الأمان النسبي، إذ لم يصل إليها الغزو المغولي العاشم، وتأسيس أمراء المزيدين لها، والمعروف عنهم تشييعهم لأهل البيت عليهم السلام، وتشجيعهم للعلم للعلماء، ومن المعلوم حاجة العلم واستقراره إلى بيئة صالحة تضمن الأمن والتشجيع، الذي كان متوفراً في الحلة دون غيرها.

شواهد وجود الحركة العلمية في النجف الاشرف في هذا العصر

لكن هذا لا يعني انعدام النشاط العلمي في النجف الاشرف، إذ يمكن سوق عدة شواهد على استمرار الحركة العلمية فيها وإن لم تكن بتلك القوة والزمخ، فمن ذلك . . .

١- تأليف نجم الأئمة المحقق الرضي الاستربادي رحمته الله - الذي

نجل العلامة (فخر المحققين) اسماه (إيضاح القواعد) إلا أن أشهر شروحه كتاب (جامع المقاصد) للمحقق الثاني الشيخ علي بن عبد العالي الكركي. وكتاب (كشف اللثام) للفاضل الهندي. (ومفتاح الكرامة) للسيد محمد العاملي (١) وقد تميز هذا الأخير بتتبع أقوال العلماء في شتى عصور الفقه، فهو يعد أحد أهم المراجع الأساسية ذلك.

ولا مجال لاستيعاب مآثر العلامة العلمية في هذه العجالة، فإنها تضيق عن الحصر ويكفيه فخراً أن له اليد البيضاء الطولى في استبصار عامة الشعوب الإيرانية لقضية مشهورة مذكورة في عدد من مصادر ترجمته، ومن ثم تعرض لحملة قاسية من عدد من أعلام العامة المعروفين بالتعصب، كابن تيمية وأضرابه، لكن الشمس لا تحجب بغيرال.

وبالجملية يعد العلامة الحلي رحمته الله خير من يمثل هذا الدور وهو دور النضج، فقد كانت مؤلفاته وجهوده نقلة نوعية في تاريخ الفقه الإمامي، وعاملاً لانتشاره في العالم الإسلامي.

ومن أعلام مدرسة الحلة أيضاً فخر المحققين أبو طالب محمد بن الحسن بن يوسف بن المطهر، فقد بذل الجهود الكبيرة في تربية جماعة من الأعلام، كان لهم الأثر الواضح في نضج الأبحاث الفقهية، ولعل أشهرهم الشيخ محمد بن مكّي رحمته الله المعروف بالشهيد الأول، فإنه وإن لم يعمر طويلاً لأنه ولد عام (٧٣٤ هـ) واستشهد عام (٧٨٦ هـ) إلا أنه كان غزير الإنتاج في الفقه وغيره. وقد يعد من مزاياه المحمودة أنه خلص الفقه الإمامي من آراء المخالفين وتفرعاتهم التي كانوا يتبجحون فيها، وهي أشبه بالألغاز وأبعد ما تكون عن الفقه، مع أنه كان له حضور كبير عند جملة من علماء العامة في بلاد الشام وغيرها.

(١) هو السيد محمد جواد بن السيد محمد الحسيني العاملي ولد عام (١١٦٤ هـ) بقرية شقراء من قرى جبل عامل وكان معروفاً بغزارة الاطلاع والضبط والانتقان وجودة الانتقاء من اشهر مصنفاته مفتاح الكرامة في شرح قواعد العلامة توفي عام (١٢٢٦ هـ). في النجف الاشرف ودفن في الصحن الحيدري الشريف.

استمر الفقه الامامي في صعوده نحو التائق والتوسع والترقي في مدارس الكمال الفكري في حين انطبع الفقه السني بطابع الجمود والتوقف حتى العصور الحالية، فإن أغلب مؤلفاتهم تدور في إطار المذاهب الأربعة المعروفة

وصفته المصادر الرجالية بالعالم الفاضل المحقق المدقق - كتابه المهم في النحو (شرح كافية ابن الحاجب) المشتمل على تحقيقات دقيقة ونكات علمية جمة يقل نظيرها في نظائره ، فعن السيوطي في كتابه (بغية الوعاة) عند ذكر المحقق الرضي وشرحه المذكور : (لم يؤلف عليها ، ولا في غالب كتب النحو مثله جمعا وتحقيقا ، فتداوله الناس واعتمدوا عليه ، وله فيه أبحاث كثيرة ، ومذاهب ينفرد بها)^(١) وقد أكمل شرحه هذا بجوار الحضرة العلوية المقدسة عام (٦٨٣ هـ) ، قال في مقدمته -على ما نقل عنه- : (إن كل ما وجد فيه من شيء لطيف وتحقيق شريف ، فهو من بركات الحضرة المقدسة ، وإفاضات أمير المؤمنين صلوات الله عليه^(٢) .

٢- وجود عدة مدارس دينية كبيرة ، تحدث عن بعضها ابن بطوطة في رحلته المشهورة عند زيارته للنجف الاشرف عام (٧٢٧ هـ) ، كما بنيت أيضا مدرستان لطلاب العلم المهاجرين إلى النجف الاشرف :

(الأولى) : بناها السلطان محمد خدابنده^(٣) ، أو ابنه أبو سعيد ، في أوائل القرن الثامن . (والثانية) : بناها المقداد السيوري الحلبي^(٤) ، في أوائل القرن التاسع وهو مؤلف كتاب (كنز العرفان في فقه القرآن) ، وكان من كبار العلماء ، ومشاهير الفقهاء ، له رئاسة دينية ، ومرجعية حافلة برجال العلم ، فعن تلميذه الحسن بن راشد انه : (كان رجلا جميلا من الرجال ، جهوري الصوت ، ذرب اللسان ، مفوها في المقال ، متقتنا في علوم كثيرة ، فقيها

(١) مقدمة رجال الشيخ ، السيد محمد صادق بحر العلوم ص : ٢٠ .

(٢) مقدمة رجال الشيخ ، السيد محمد صادق بحر العلوم ص : ٢٠ .

(٣) هو غياث الدين اولجياتو محمد (خدا بنده) اي عبد الله بن ارغون ، حفيد هولاكو وكان محمد خدا بنده من اعدل ملوك زمانه وفقه الله للاستبصار واعتنق مذهب اهل البيت عليهم السلام على يد العلامة الحلبي عام (٧٠٨ هـ) بعد ما كان حنفي المذهب ونشا فيه من الصغر ثم عدل الى مذهب الشافعي . ولد عام (٦٨٠ هـ) وتوفي ليلة عيد الفطر عام (٧١٦ هـ) عن عمر ٣٦ سنة وكان سبب وفاته انه سقي السم واصابه اسهال شديد اودى بحياته رحمه الله .

(٤) المقداد بن عبد الله بن محمد بن الحسين بن محمد السيوري الحلبي الاسدي فقيه ، اصولي متكلم مفسر اخذ عن الشهيد الاول وتوفي في النجف عام (٨٢٦ هـ) ومن اناره (شرح نهج المسترشدين في اصول الدين ، وكنز العرفان في فقه القرآن ، وشرح الباب الحادي عشر) وغيرها .

متكلما أصوليا نحويا منطقيا ، صنف وأجاد)^(٥) ولا بد أن يكشف تشييد المدارس عن وجود حركة علمية تستوجب ذلك .

٣- يظهر من بعض المصادر أن المحقق الثاني (الشيخ علي الكركي) مؤلف الموسوعة الفقهية الثمينة (جامع المقاصد) كانت له إقامة معتد بها في النجف الاشرف ، مارس فيها بعضا من نشاطه العلمي ، فقد ألف فيها رسائل الفقهية عام (٩٣٩ هـ) كما أجاز الفقيه الشيخ احمد بن محمد المشهور بابن أبي جامع^(٦) ، وهو الجد الأعلى لعدد من الأسر العلمية النجفية ، ومنهم آل محي الدين عام (٩٢٨ هـ) . كما أجاز فيها الشيخ علي بن عبد الصمد (عم الشيخ البهائي) في الرواية عام (٩٣٥ هـ)^(٧) . والأهم من ذلك تأسيسه الجامع المعروف باسمه ، وهو المشتهر في عصورنا بجامع الطريحي . وقد كانت عنده اقطاعات وأراضي زراعية قرب النجف الاشرف ، وتوفي أخيرا فيها يوم الغدير عام (٩٤٠ هـ)^(٨) .

٤- تقلد سدانة المشهد العلوي من قبل كثير من العلماء مثل الشيخ سديد الدين يحيى بن محمد بن عليان في حدود عام (٦٠٦ هـ) . وقد روى عن أبي محمد الحسن بن محمد بن أبي جمهور ، وروى عنه موسى بن علي بن جابر السلامي ، والسيد علي بن عزام الحسيني الغروري المتوفى عام (٦٧١ هـ) ، وكذا شرف الدين حسن بن عبد الكريم المعروف بابن الفتال ، الذي كان من علماء عصره وتوفي عام (٨٧٧ هـ) وغيرهم ممن يصعب حصرهم^(٩) وهؤلاء وإن لم يكونوا مشهورين بالزعامة العلمية ، إلا أنه لا إشكال في كونهم من الأعلام الفضلاء بعد وصفهم بذلك في المصادر الرجالية ، وهو شاهد صدق على وجود حركة علمية في النجف الاشرف هذه الفترة .

(٥) ماضي النجف وحاضرها ج : ٣ ص : ٢٧٩ .

(٦) قال الحر العاملي في امل الامل : الشيخ احمد بن ابي جامع العاملي كان عالما فاضلا ورعا ثقة يروي عن الشيخ علي بن عبد العالي الكركي اجازة

صدرت له منه بالغري سنة ٩٢٨ هـ وقد اتنى عليه فيها كثيرا .

(٧) سفينة البحار للشيخ القمي ج : ٢ ص : ٢٤٧ .

(٨) ماضي النجف وحاضرها ج : ٣ ص : ٢٤٢ .

(٩) ماضي النجف وحاضرها ج : ١ ص : ٢٥٩ .



الفتح الفكري في إيران على يد الشيخ الحلبي

في أوج النشاط الفكري لمدرسة الحلة ، حدث فتح عظيم جدا للفكر الإمامي ، تمثل في استبصار ملك إيران (الشاه محمد خدا بنده) حدود عام (٧٠٧ هـ) ، إثر ابتلائه بمسألة شرعية لم يجد لها جوابا شافيا مقنعا له عند فقهاء المذاهب الأربعة المشهورة في مملكته . في حين وجد المخرج الملائم لها عند العلامة الحلبي^(١) - أشهر علماء الإمامية في عصره - وبعد مناظرة علمية وخطابية بين العلامة وباقي علماء المذاهب السنية؛ انضح للملك الإيراني أحقية ما عليه الإمامية ، فاعتنق المذهب الحق ، وتبعه أكثر الشعب الإيراني في ذلك رغبة أو رهبة .

فأصبح بذلك للعلامة^(٢) المكان المرموق في نفوس الإيرانيين ملكا وشعبا وقد استطاع^(٣) بما أوتي من مواهب علمية فذة في الفقه والعقائد والأخلاق أن يثبت أحقية معتقدات الإمامية وصواب أفكارهم وبطلان ما عليه غيرهم من الفرق والمذاهب الإسلامية .

وقد أمضى^(٤) حقبة كبيرة من فترة رئاسته العلمية برفقة الملك المذكور يدفع شبهات المعاندين في المملكة الإيرانية ، أو المتضررين من استبصار الملك المذكور من بعض علماء المذاهب الأخرى . وكان من مظاهر اعجاب الملك بقدرات العلامة العلمية عدم صبره عن مفارقتها حتى في رحلاته التفقدية لأطراف المملكة . ولما كان العلامة^(٥) لا يستطيع أيضا التخلف عن البحث والتدريس ، فقد أمر الملك بإنشاء مدرسة سيارة له عبارة عن عدة صواوين مصنوعة من الجلود السمكية تشتمل على ما يشبه أبنية المدارس الدينية المعروفة : من فناء وأواوين وغرف ، يمكن نصبها في أي مكان يجلب به ، ويسهل طيها بعد ذلك ، كان العلامة^(٦) يستخدمها لإلقاء العلوم على طلاب المعرفة ، ومذاكرة العلماء ، وفصل الخصومات ، والجواب عن استفتاءات عامة الناس وخاصتهم ، وتأليف الكتب العلمية ، ونحو ذلك من النشاطات التي يقوم بها المرجع العام في مقره الدائم . وبقي^(٧) ملازما للملك المذكور حتى وفاته (٧١٦ هـ)

وبعد ذلك سافر للديار المقدسة لأداء فريضة الحج ، وكان بمعبته ولده فخر المحققين (أبو طالب) ، واستقر بعد قفوله من الحج في الحلة حتى وافته المنية عام (٧٢٦ هـ) .

تعريف بأشهر الأعلام المستقرين في إيران

هذا وقد استقطبت إيران - بعد العلامة^(٨) - جماعة من أعلام الطائفة .

المحقق الثاني

(أولهم) : وأشهرهم المحقق الثاني (الشيخ علي بن عبد العالي الكركي^(٩) ٩٤٠ هـ) ، صاحب الكتاب الفقهي القيم (جامع المقاصد) وهو شرح استدلالتي متين لقواعد العلامة الحلبي^(١٠) ، الذي يعتبر من أهم المصادر في الفقه . وقد نقل المحدث النوري^(١١) في خاتمة مستدركه عن الشيخ صاحب الجواهر^(١٢) : أن من كان عنده كتب : جامع المقاصد والوسائل والجواهر ، لا يحتاج بعدها إلى كتاب آخر للخروج عن عهدة الفحص الواجب على الفقيه في أحاد المسائل الشرعية . وهذه شهادة قيمة من هذا الفقيه المتبحر في حق الكتاب المذكور تكشف عن مكانته الفقهية العالية ، وشرف منزلته ومقام مؤلفه في نفوس أعلام الطائفة . هذا إضافة إلى جملة من المؤلفات الفقهية والرسائل المختلفة في شتى العلوم ، فعن السيد التفرشي في رجاله قوله في وصف المحقق المذكور : (شيخ الطائفة ، وعلامة وقته ، وصاحب التحقيق والتدقيق ، كثير العلم ، جيد التصانيف ، من أجلاء هذه الطائفة^(١٣))

ونقل الشيخ القمي^(١٤) عن بعض معاصري المحقق الكركي قوله : (إن بعد الخواجة نصير الدين - في الحقيقة - لم يسمع أحد سعى أزيد مما سعى الشيخ علي الكركي هذا في إعلاء المذهب الحق الجعفري وكان له في منع الفجرة والفسقة وزجرهم ، وقمع القوانين المبتدعة وقمعها ، وفي إزالة الفجور والمنكرات وإراقة الخمر والمسكرات ، وإجراء الحدود والتعزيزات ، وإقامة الفرائض والواجبات ، والمحافظة على الجمعة الجماعات ، وبيان أحكام الصيام والصلوات ، والفحص عن أحوال الأئمة والمؤذنين ، ودفع شرور المفسدين ، وزجر مرتكبي الفسوق

(١) نسبة الى مدينة كرك في لبنان .

(٢) الكنى واللقاب ج ٣ ص ١٤٠ .

إن فقهاء الشيعة المتأخرين عليه السلام لا يتوقفون عن الاعتراض على أي مطلب لمن سبقهم من الأعلام بالنقد والتمحيص ، لتحقيق الحق ، مع إعطائهم حقوقهم من التبجيل والتقدير بما هم أهله .

والفجور حسب المقدور ورغب عامة العوام في تعلم الشرائع وأحكام الإسلام ، وكلفهم بها^(١) وكانت وفاته عليه السلام - كما تقدم - في مشهد أمير المؤمنين عليه السلام في يوم الغدير عام (٩٤٠هـ) .

الشيخ حسين بن عبد الصمد الحارثي

(الثاني) : الشيخ حسين بن عبد الصمد العاملي الحارثي (والد الشيخ البهائي) (٩١٨ - ٩٨٤ هـ) فقد عرفه جماعة من أعلام التراجم بأنه كان عالما ماهرا محققا مدققا متبحرا جامعا عظيم الشأن جليل القدر من أفاضل تلامذة الشهيد الثاني عليه السلام . له عدة مؤلفات في الفقه وغيره هاجر من بلاده (جبل عامل) إلى خراسان ومنها إلى هراة وأصبح بها شيخ الإسلام (قاضي القضاة) ثم هاجر إلى البحرين ، وتوفي فيها عام (٩٨٤ هـ) وقبره مشهور هناك يقصده المؤمن للتبرك به .

ويكفي شاهدا على فضله ما جاء في إجازة الشهيد الثاني عليه السلام له ، إذ يقول في أولها : (ثم إن الأخ في الله ، المصطفى في الإخوة ، المختار في الدين ، المرتقي عن حضيض التقليد إلى أوج اليقين ، الشيخ العالم الأوحى ، ذا النفس الطاهرة الزكية عضد الإسلام والمسلمين عز الدنيا والدين (حسين)^(٢))

الشيخ البهائي

(الثالث) : الشيخ محمد بن الحسين العاملي الحارثي ، المعروف بالشيخ البهائي (٩٥٣ - ١٠٣١ هـ) تربى على جملة من الأعلام في شتى العلوم ، إلا أن عمدة تلمذته كانت على أبيه (الفقيه الشيخ حسين) قال عنه صاحب السلافة : (علامة البشر ومجدد المذهب على رأس القرن الحادي عشر وإليه انتهت رئاسة المذهب والملة ، وبه قامت قواطع البراهين والأدلة وجميع فنون العلم فاعتقد عليه الإجماع ، وتفرد بصنوف الفضل فبهر النواظر والإسماع ، فما من فن إلا وله فيه القدر المعلى ، أذعن له فقهاء

(١) الكنى واللقاب ج : ٣ ص : ١٤١ .

(٢) لؤلؤة البحرين ص : ٢٤ .

(٣) الكنى واللقاب ج : ٢ ص : ٩٢ .



الألف من الفضلاء) . ومن هذا النص يعرف مقدار فضل هذا العالم وجهوده المشكورة وتوفي عليه السلام عام (١٠٢١ هـ)

المجلسي الأول

(الخامس) الشيخ محمد تقي بن مقصود علي المشتهر بالمجلسي الأول (١٠٠٣ - ١٠٧٠ هـ) ، فقد عرفه مترجموه بأنه كان فائق أهل الدهر في علوم الفقه والحديث والرجال ، مشغولا طول حياته بتهذيب النفس والعبادة وترويج الأحاديث والسعي في قضاء حوائج المؤمنين وهداية المسترشدين ، وانتشر ببركته حديث أهل البيت عليهم السلام . له شرحان كبيران جدا على كتاب (من لا يحضره الفقيه) للشيخ الصدوق عليه السلام ، أحدهما بالعربية ، والأخر بالفارسية ، وكتابه في المشيخة - الذي سبقته الإشارة إليه في ترجمة الشيخ التستري - وهو الجزء الأخير لشرحه المذكور للفقيه .

وتعرف أهمية هذا العالم الجليل من انتهاء أكثر إجازات الرواية إليه ، وقد تلمذ عليه جمع من الأعلام كالسيد الخوانساري (الأغا حسين) صاحب (مشارك الشموس في شرح الدروس في الفقه) ، ويكفيه فخرا كونه المرئي الأكبر لولده (محمد باقر المجلسي) صاحب البحار .

صاحب البحار

(السادس) : الشيخ محمد باقر الشيخ محمد تقي المجلسي (١٠٣٧ - ١١١١ هـ) وهو أشهر من أن يذكر ، فقد كانت له اليد الطولى والمساعي المشكورة في ترويج المذهب الحق ، وكسر صولة المبتدعين وإحياء السنن الدارسة ونشر آثار الأئمة الطاهرين عليهم السلام بما أوتي من سلطة دينية وزمنية ، فقد كان - مع تبحره في الفقه والحديث وأكثر العلوم - الوزير الأول في مملكة الشاه حسين الصفوي ، وتخرج من مجلسه جماعة كثيرة من فضلاء عصره قاربوا الألف شخص ، كما عن تلميذه^(١) المؤرخ

(١) سفينة البحار ج : ١ ص : ١٦٨ .

عبد الله الأصفهاني المشهور بالأفندي^(٢) صاحب كتاب (رياض العلماء) الذي هو من كتب التراجم المعتمدة .

ويكفيه فخرا أنه - مع كثرة انشغاله بمشاكل الناس الدينية وقضاء حوائجهم الدينية وإقامة الجمعة والجماعات والتدريس في مختلف العلوم ، حيث كان شيخ الإسلام في العاصمة اصهبان - ألف أكبر وأعظم موسوعة في الفقه والحديث والسيره والتاريخ والتراجم والعقائد ، وباقي أنحاء المعرفة السائدة في عصره ، ألا وهي موسوعة (بحار الأنوار)

حيث زاد ما طبع منها أخيرا على المائة وعشرة أجزاء ، فأسدى بذلك للمكتبة العلمية الشيعية ، بل الإنسانية فضلا عن الإسلامية ، يدا بيضاء جلييلة تذكر فتشكر ، بما اشتملت عليه من الأقسام المعروفة التي يتعذر - عادة - قيام شخص واحد - مع كثرة مشاغله الدينية والدينية - بانجازها .

هذا مضافا إلى جملة من الآثار العلمية وأهمها كتابه القيم (مرآة العقول) الذي هو من أنفس الشروح القيمة لكتاب (الكافي) لثقة الإسلام الكليني عليه السلام - أهم مصدر في الحديث عند الإمامية - وقد طبع عدة طبعات ، وطبعت بعض حواشيه مع طبعة الكافي الحديثة ، يتبين بمراجعتها مدى سعة باع مؤلفها في سائر العلوم العقلية والنقلية . لمعرفة المزيد من مآثر هذا العالم الموسوعي الجليل الجامع بين الدين والدنيا يحسن مراجعة كتاب (الفيض القدسي في ترجمة العلامة المجلسي) للشيخ التوري عليه السلام صاحب كتاب (مستدرك الوسائل) .

الفيض الكاشاني

(السابع) : الشيخ محمد بن مرتضى ، المشهور بالمحسن الفيض الكاشاني المتوفى عام (١٠٩١ هـ) كانت له جملة من المصنفات المشهورة في الفقه والتفسير والحديث والكلام والأخلاق وغيرها ، كالوافي في الحديث والفقه ، والمفاتيح في الفقه أيضا ، والصافي في التفسير ، ومنتخبه الشافي ، وعلم اليقين في أصول الدين ، وبشارة الشيعة ، والمحجة البيضاء في الأخلاق ، وغير ذلك مما يقرب من مائة مصنف .

(٢) عبد الله ابن عيسى التبريزي جليل القدر رفيع المنزلة عند السلطان العثماني انذاك وكان يخاطبه تكريما له وتعظيما (بالأفندي) فاشتهر به وكان من خالص تلامذة صاحب البحار وله من المصنفات رياض العلماء والامان من النيران في تفسير القرآن توفي عام (١١٣٤ هـ) .

ان الفقه الإمامي الشيعي - كان وما يزال - يمتلك عوامل النمو الذاتي ، لأنه

مستقى من المنابع الأصيلة للتشريع الإسلامي ، المتمثلة بالنبي ﷺ وخلفائه الأئمة

المعصومين عليهم السلام ، وسعي فقهاء عليهم السلام الحديث نحو تحقيق الحق وإبطال الباطل .

وأشهر كتبه هو (الوافي) وبه يعرف ، والذي جمع فيه ما في الكتب الأربعة بعد إسقاط الأحاديث المتكررة ، وقد اشتمل في جملة أبوابه على عدة تحقيقات ، ذكرا وجوه الجمع بين الأحاديث ، وبعض النكات الفقهية والرجالية والكلامية واللغوية ، مما يكون له من الفوائد الجمّة غير فضيلة جمعه بين الكتب الأربعة ، وهو وإن كان غير خال عن بعض مسالك الصوفية ، إلا أنه يعد من المصادر المهمة في الفقه والحديث .

المحقق الخونساري

(الثامن) : الأغا حسين بن جمال الدين ، المشهور بالمحقق الخونساري (١٠١٦-١٠٩٨ هـ) . عرف بالتحقيق في الفقه وأصوله والحكمة والتفسير وتخرج عليه جملة من أعلام عصره ، ومنهم ولده المحقق (الأغا جمال صاحب الحواشي المشهورة على المعالم والشرايع واللغة ، وكان مقدما عند سلطان عصره (الشاه سليمان الصفوي) حتى نقل أنه رغب إليه مرة في إحدى سفراته خارج عاصمته ، في القيام بتصريف شؤون المملكة حسب ما يريد ، لأنه - في الحقيقة - الأولى بذلك ، فاستجاب له وقام به خير قيام^(١) .

وأشهر مؤلفاته في الفقه كتاب (مشارك الشمس) ، وهو شرح لدروس الشهيد الأول عليه السلام . قال عنه صاحب روضات الجنات : (وشرحه المشار إليه على (الدروس) كبير ، موسوم بمشارك الشمس ، لم يصنف مثله في كثرة التحقيق ، وجودة الاستدلال ، وحسب البيان ، وتفصيل المطلب ، والاشتمال على اغلب القواعد الأصولية ، والضوابط الاجتهادية) إلا أنه لم يخرج منه سوى كتاب الطهارة^(٢) . وعن جامع الرواة : (أنه في غاية البسط ، وكمال الدقة ، مشتمل على جميع أخبار الأئمة عليهم السلام وأقوال فقهاء الإمامية عليهم السلام بحيث لا يشذ عن شيء^(٣) .

ونقل في الروضات عن صاحب الحقائق عليه السلام ان المحقق

(١) روضات الجنات ج : ٢ ص ٣٥١

(٢) روضات الجنات ج : ٢ ص : ٣٥١

(٣) الكني والألقاب ج : ٢ ص : ١٣٨

الخونساري اشتغل في أغلب عمره بالحكمة وأن من بركات اشتغاله بها انكسار صولة أصول الفلاسفة وانهدام القواعد النظرية المقررة عندهم ، المسلمة من زمن أرسطو^(٤) والفارابي^(٥) وابن سينا^(٦) ، التي كانت تنافر ظواهر الكتاب والسنة ، ويورث الاعتقاد بها الضلال ، ولم ينكرها أحد قبل هذا المحقق العظيم ، وما ذلك إلا لكثرة تبحره فيها ، وقدرته الفائقة على الإحاطة بدقائقها ، حتى كان له الحق الأعظم على كافة علماء الإسلام^(٧) وخصوصا علماء الإمامية .

(وتبججة لمرانه العظيم في التفكير الفلسفي ، انعكس اللون الفلسفي على الفكر العلمي والأصولي بصورة لم يسبق لها نظير ، ونقول انعكس اللون الفلسفي ، لا الفكر الفلسفي ، لان هذا المحقق كان نائرا على الفلسفة وله معارك ضخمة مع رجالها ، فلم يكن فكره فلسفيا بصيغته التقليدية ، وإن كان يحمل اللون الفلسفي ، فحينما مارس البحث الأصولي - في كتابه المذكور - انعكس اللون وسرى في أصول الاتجاه الفلسفي ، بروحية متحررة من الصيغ التقليدية التي كانت الفلسفة تتبناها في مسائلها وبحوثها^(٨) . وكان لهذه الروح أثرها الكبير في تطور العلم ، وقد مهدت أفكاره الأصولية لظهور مدرسة الأستاذ الوحيد البهبهاني عليه السلام كما قد يأتي التنبيه عليه عند دراسة علم الأصول إن شاء الله تعالى .

(٤) ارسطو طاليس : احد تلامذة افلاطون وقد لازمه طيلة عشرين سنة ويعرف ارسطو مؤسس الفلسفة المشائية ولقب بالمعلم الاول وذلك لانه اول من ارسى اسس علم المنطق ولد عام (٣٨٤ ق . م) وتوفي عام (٣٢٢ ق . م) .

(٥) ابو نصر محمد الفارابي ولد عام (٢٦٠ هـ) في مدينة فاراب وهي جزء مما يعرف اليوم تركستان وتوفي عام (٣٣٩ هـ) .

(٦) هو ابو علي الحسين بن عبد الله بن الحسين بن علي بن حسين ، اشتهر بالظب والفلسفة ولد عام (٥٣٧٠ هـ) في قرية (مشا) اوزبكستان حاليا وتوفي في مدينة هندان في ايران حاليا عام (٥٤٧ هـ) عرف باسم الشيخ الرئيس وقد الف ٤٥٠ كتابا في مواضع متفرقة .

(٧) روضات الجنات ج : ٢ ص ٣٥٦

(٨) المعالم الجديدة للأصول ص ٨٤

صاحب الوسائل

(التاسع) : الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي (١٠٣٣ - ١١٠٤ هـ) ، وكانت ولادة هذا العالم الجليل في قرية (مشغرة) في جبل عامل في لبنان وقد تلقى مقدمات العلوم العربية والدينية على أيدي جماعة من الأعلام ، وعندما أتقنها جميعا اتجه للتأليف والبحث فقدم للمكتبة الإسلامية عدة مؤلفات قيمة في الفقه والحديث والعقائد والرجال والتفسير تقرب من ثلاثين كتابا ورسالة ما بين صغير وكبير ، ويعد بعضها من أهم المصادر في بابها خصوصا كتابه (أمل الآمل في تراجم علماء جبل عامل) وكتاب (إثبات الهداة بالنصوص والمعجزات) ، حيث اشتمل على أكثر من عشرين ألف حديث ، منقولة بحوالي سبعين ألف سند ، ماثورة في كتب العامة والخاصة وقد هاجر إلى إيران حوالي عام (١٠٨٠ هـ) ، واستقر في المشهد الرضوي المقدس ، وتسلم فيه منصب مشيخة الإسلام ، الذي هو عبارة عن منصب (قاضي القضاة) اعترافا بفضله وتبحره في الفقه والأصول واستمر فيه حتى وفاته عليه السلام ودفن بجوار الإمام الرضا عليه السلام في صحنه الشريف .

تعريف بكتاب الوسائل

لكن ذلك كله - على أهميته - لا يوازي كتابه الخالد الذكر في الفقه والحديث (تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة) الذي اشتهر به فكان أحسن ما يعرف به فيكتفي أن يقال : صاحب الوسائل ، حيث أصبح علما له ، ومختصا به في القرون الثلاثة الأخيرة ، فإنه المرجع الذي لا يستغنى عنه الفقيه في أي باب من أبوابه ، لأنه جمع الأحاديث المروية عن أهل بيت العصمة عليهم السلام ، المودعة في الكتب الأربعة المشهورة ، وأضاف إليها أحاديث كثيرة استخرجها من كتب الأصحاب المعتمدة تربو على مائة وثمانين كتابا ، وأورد أسماءها في أول كتابه ، وذكر أنه نقل عن بعضها بلا واسطة ، وعن الأخر بالواسطة وفي ضمنها عدد كبير من الأصول الأولية لقدماء الأصحاب عليهم السلام ، وقد

استوعب فيه أبواب الفقه جميعا من الطهارة إلى الديات ، وألحقه بقاموس للرجال ترجم فيه عددا كبيرا من الرواة .

ولم تخل أكثر أبوابه من بعض الإشارات الفقهية تدل على مختارة في المسائل التي يعنون بها الأبواب ، كما قد يجمع أحيانا بين الأخبار المتعارضة أو يوضح بعض مشكلاتها ، مما جعله محتويا على الفقه والحديث والرجال ، وقد اكتسب بذلك أهمية قصوى لدى الفقهاء والباحثين على مر العصور .

واللافت للنظر فيه دقته المتناهية في تبويب الأحاديث وإرجاع بعضها إلى بعض مما يسهل الاستفادة منه ، وييسر للباحث مهمته في تحصيل ما يريد بأقرب طريق ، وخاصة بملاحظة ما وضعه له من فهرست مفصل يشتمل على الإشارة لأحاديث كل باب وأعدادها ، وما يستفاد منها إضافة للعنوان الذي يُعنون به الباب ، وسماه (من لا يحضره الإمام) وقد أفنى من عمره الشريف في جمعه وتبويبه حوالي عشرين عاما ، حتى أصبح من أحسن كتب الأحاديث وأجمعها وأفضلها تبويبا وأكثرها فائدة ، ويعرف ما أقول كل فاضل منتبج لمصادر الفقهاء في استنباط الأحكام الفرعية من السنة الشريفة ، وقد مرت علينا كلمة شيخ الفقهاء المتأخرين صاحب الجواهر عليه السلام في تقييم الكتاب وأهميته .

بعض نواقص كتاب الوسائل

ومع ذلك فهو شأن كل كتاب ماعدا كتاب الله الناطق (القران الكريم) لم يخل عن بعض النواقص ، وعمدتها ما يأتي :

- ١- إهمال بعض مصادره ، إذ يكتفي أحيانا بقوله (ورواه في بصائر الدرجات - مثلا -) من دون أن يذكر مكانه .
- ٢- تقطيع الأحاديث بحسب ما يراه هو عليه السلام من دلالتها على عنوان مع أنه قد تفوت بذلك بعض القرائن المحيطة بالفقرات المنتزعة من الحديث موضع الشاهد .
- ٣- الاكتفاء بقوله (وروى مثله ، أو نحوه) عن ذكر متن الحديث مع أنه قد يكون بينهما تفاوت أو فرق - ولو بكلمة - محل بالمقصود أحيانا .
- ٤- الإجمال في الإشارة في ذيل أكثر أبوابه بقوله : (وتقدم ما يدل على ذلك ويأتي)
- ٥- الاختلاف أحيانا في السند أو المتن مع المصدر الذي ينقل

كانت مؤلفات العلامة الحلي رحمته الله وجهوده نقلة نوعية في تاريخ الفقه الإمامي ، وعماملا لانتشاره في العالم الإسلامي . وكانت له اليد البيضاء الطولى في استبصار عامة الشعوب الإيرانية لقضية مشهورة مذكورة في عدد من مصادر ترجمته ، ومن ثم تعرض لحملة قاسية من عدد من أعلام العامة المعروفين بالتعصب ، كابن تيمية وأضرابه .



كشف اللثام

(العاشر) : الشيخ محمد بن الحسن بن محمد الأصفهاني المتوفى عام (١١٣٧ هـ) والمشهور بالفاضل الهندي ولعله لسكنائه في مقتبل حياته العلمية في الهند . وهو مؤلف كتاب (كشف اللثام عن قواعد الأحكام) . وقد كان من نوابغ عصره بل سائر العصور حيث ذكر هو رحمته الله عن نفسه في مقدمة كتابه المذكور أنه فرغ من تحصيل العلوم العقلية والنقلية ولم يكمل ربيعته الثالث عشر . ويعد كتابه هذا من أمهات الكتب الفقهية الجليلة المعتمدة عند فقهاءنا المتأخرين ويكفي أن صاحب الجواهر رحمته الله كان لا يكتب شيئاً من جواهره ما لم يحضره كشف اللثام^(١)

ويظهر من حال هذا الفقيه العبقري حسن اعتقاده في مواهب المحقق الثاني رحمته الله (الشيخ علي بن عبد العالي الكركي) وتبحره في الفقه وإعجابه بكتابه الخالد الذكر (جامع المقاصد) الذي هو من أفضل شروح كتاب قواعد العلامة الحلي وتقدم الحديث عنه قريباً ، إلا أنه لم يكمله بل وصل فيه إلى مبحث (تفويض البضع) من كتاب النكاح ، فابتدأ الفاضل الهندي رحمته الله بإتمامه من حيث وصل إليه المحقق الثاني إلى نهاية القواعد ثم شرح بعد ذلك كتاب الحج والطهارة والصلاة وغيرها على ما ذكره صاحب الذريعة .

ونكتفي بما ذكرناه من بعض أحوال هؤلاء الأعلام رحمته الله وأهم مؤلفاتهم الفقهية والحديثية كمثال واضح على الدور القيم الذي قام به الأعلام المذكورون وغيرهم في الإسهام بتعميق الدراسات الفقهية والوصول بها إلى مرحلة متقدمة من النضج الذي أتى أكله وظهرت آثار ثماره البانعة في الارتقاء بالبحوث الفقهية حتى بلوغ مرحلة التكامل . وللمزيد من الاطلاع يحسن

[رقم ١٠]

وقد شكلت لجان تحقيق عالية المستوى لمقابلة المطبوعة مع اغلب الاجزاء التي حصلت عليها المؤسسة بخط المؤلف ثم تخريج النصوص من مصادرها الاصلية وانجزت في ثلاثين مجلداً تسر الناظرين فجزى الله مؤسسة ال البيت المحققين خير الجزاء .

(١) سفينة البحار ج : ٢ ص : ٧٢٥

ومع كل ذلك فالكتاب والتحقيق لا يخلوان من بعض الأخطاء والنواقص ولعله لاختلاف النسخ والعصمة من الله سبحانه وتعالى^(٢) .

(٢) لم يكن العلامة السيد محمد جعفر الحكيم حين كتبه بحثه قد اطلع على العمل الكبير الذي قامت به مؤسسة ال البيت في تحقيق الوسائل حيث تداركت فيه النواقص التي اشار اليها في المتن ، وقد عرض العلامة السيد جواد الشهرستاني في مقدمة التحقيق مبررات التحقيق وذكر جملة من عباراته قال :

[أولاً : لقد كان الخلل الأساسي في الطبعة (الحروفية) الأولى (من الوسائل) هو عدم الاعتماد على نسخة بخط المؤلف بينما اعتمدنا في عملنا على نسخة بخط المؤلف شملت أقساماً كبيرة من الكتاب .

ثانياً : كتب المصنف (الحر العاملي) قدس على هوامش نسخته شروحا وبيانات تتعلق بتوضيح عبارة أو تعريف مفردة لغوية أو دفع إشكال عن سند الحديث أو منته لم تدرج كلها في الطبعة الأولى ، بينما أدرجت في هذه الطبعة في الهوامش وذيلت ؛ (منه قدس سره) .

ثالثاً : لطبعة (الحروفية) المتداولة لم تخلو من أخطاء واشتباهاها منها :

١ - عدم ضبط سند الحديث من حيث الاسم الصحيح للرواة أو غير ذلك .

أ - الحديث ١ من الباب ١٢ من أبواب مقدمة العبادات كان سابقاً محمد بن يحيى العمري الخراساني ، والصحيح محمد بن يحيى ، عن العمري الخراساني كما في المخطوطة . ب - الحديث ٤ من الباب ٣٢ من أبواب المواقيت كان . . . سفيان بن عيينة ، عن الزبير . والصواب . . . عن أبي الزبير كما في المخطوطة . < صفحة مقدمة التحقيق ١٠١ > ج - الحديث ٦ من الباب ٣٢ من أبواب صلاة الجماعة كان سابقاً محمد بن علي بن محبوب ، عن عبد الرحمن بن أبي الهاشم . والصواب محمد بن علي بن محبوب ، عن محمد بن عيسى ، عن عبد الرحمن بن أبي الهاشم . كما في المخطوطة .

٢ - عدم تخريج بعض الأحاديث التي نص المصنف إنها رويت في الكتاب الفلاني مثلاً واعترا ف المحقق بعدم وجودها . أ - الحديث ٧ من الباب ١٦ من أبواب القبلة عن المقنعة وذكر المحقق عبارة : لم نجده فيه . في حين وجدناه في المقنعة . ب - الحديث ٣ من الباب ٦ من أبواب الشفعة ذكر المصنف في ذيل الحديث : ورواه الكليني . . . إلى آخره . وذكر المحقق في الهامش : ليس هذا الحديث في النسخ المطبوعة من الكافي . في حين إنه موجود سندا ومتناً .

٣ - تقديم أو تأخير بعض الأسطر عن مواقعها . أ - الحديث ١٠ و ١١ من الباب ٣ من أبواب آداب الصائم هناك تكرار واضح غير مذكور في النسخة الخطية . ب - الحديث ٤ من الباب ١٣ من أبواب أحكام الدواب ، وردت عبارة في ذيله . . . ورواه البرقي . . . < صفحة مقدمة التحقيق ١٠٢ > في حين إن هذه العبارة تعود لحديث رقم ٣ حسب النسخة الخطية . ج - الحديث ٢ من الباب ٢٠ من أبواب الخلل الواقع في الصلاة . وردت في ذيله عبارة . . . ورواه الكليني عن علي بن إبراهيم . . . إلى آخره . في حين إن هذه العبارة تعود للحديث

عنه إلى غير ذلك مما يعرفه الخبير الممارس . لكن عناية الله بهذا الكتاب الجليل قد قيضت أفاضل المحققين المعاصرين من الأعلام لتلافي في هذه النواقص المذكورة وغيرها ، وقد بدا ذلك واضحاً للعيان في الطبعة الأخيرة التي نفذتها دار الكتب الإسلامية بطهران ، فجاء بمحمد الله تعالى وتوفيقه ، والسعي المشكور للقائمين بتحقيقه وطبعه على أحسن ما يتمناه طالب الحق ، وكل باحث ، ولو أدركه مؤلفه (طاب ثراه) لقرت عينه بما رأى فقد اشتمل على عدة أمور نافعة جداً أهمها :

مميزات تحقيق الوسائل

١- إرجاع الأحاديث إلى مواضعها في مصادرها الأصلية ، وتعيين أرقام الصفحات ليتيسر للباحث الاطلاع على أصل أو إتمام الحديث .

٢- بيان تقطيع الحديث والإشارة إلى صدره وذيله في مصدره .

٣- ذكر المواضع التي يشير إليها بقوله (تقدم ويأتي) . وتحسن الإشارة هنا إلى أن جملة من الأعلام قد ألفوا كتاباً لبيان ذلك إلا أنها لم تلقَ رواجاً لكونها منفصلة عن الكتاب وقد ذكر بعضها الشيخ الطهراني في الذريعة^(٣) .

٤- الإشارة إلى الأحاديث المتكررة مع بيان مواضع التكرار .

٥- ترقيم الأبواب والأحاديث .

٦- تصحيح ما وقع من الخلل في المتن أو السند . هذا مع إضافة بعض التعليقات النافعة ، والجهد المبذول بسخاء في التصحيح عند الطبع ، فجاء الكتاب مجلدة قشبية قل أن يوجد بمثلا غيره ، فجزى الله سبحانه وتعالى القائمين بهذا المشروع عن العلم والعلماء والفقه والفقهاء وطلاب الحق خير جزاء المحسنين أنه ولي القبول والتوفيق .

(١) ج : ص : ٣٥٢ وما بعدها .

مراجعة الكتب والفهارس المعدة لذلك ولعل أهمها مؤلفات البحائة الشهرير الشيخ أغا بزرك الطهراني رحمته الله (صاحب الذريعة إلى تصانيف الشيعة)

عودة النجف الاشرف إلى استقطاب الحركة العلمية

ما أن بزغ نجم المحقق الفقيه المقدس الاردبيلي رحمته الله (احمد بن محمد) المتوفى عام (٩٩٣ هـ) حتى استقطب أفئدة رواد للعلم والفقه من شتى الأنحاء ، فكان ظهوره نقطة انعطاف في استرجاع النجف الاشرف دورها القيادي للعلم كأهم مركز للدراسات الفقهية الإمامية ، بنحو قل أن يستقل فقيه بنفسه أو بما يتلقاه من دراسات في أماكن أخرى غير النجف ، دون المكث فيها - ولو لفترة يسيرة - يصقل مواهبه بالأخذ من أعلامها والاستفادة من بحور علومهم الفياضة .

ولا يمكن عادة أن يقصدها المقدس الاردبيلي للاستيطان بها لمجرد كونها بلدة مقدسة من دون أن يكون فيها من الأعلام من هم أهل لأن يقصدهم مثله للاستفادة العلمية ، مما يكشف عن تواصل المسيرة العلمية فيها جنباً إلى جنب مع الحلة ، فقد ورد في ترجمته رحمته الله أنه درس عند فضلاء العراقيين وأعلام المشاهد المشرفة ، وإن لم يعرف من يشار إليه منهم بالبنان .

مؤهلات المقدس الاردبيلي

ولا يبعد أن يستند استرجاع النجف الاشرف الدور القيادي إلى قوة شخصية المحقق الاردبيلي فضلاً عن اشتهاره بالورع والقداصة حتى طغى لقب (المقدس) على سائر ما يتحلى به من خلال الفضل والكمال ، وقد نقل مكرراً عن عدد من تلامذته بعض الكرامات الخارقة له المتعلقة بتلقيه بعض أجوبة مسائله من قبر أمير المؤمنين عليه السلام ، وانفتاح أبواب الحرم له ، أو تحويله عليه السلام له إلى قائم آل محمد (عج) في جامع الكوفة ، مع شدة ورعه وتقواه وتضلعه في مختلف العلوم فقد ألف عدة كتب في الفقه ، أهمها وأشهرها كتاب (آيات الأحكام) الذي تعرض فيه - نظير جملة ممن تقدمه من الأعلام - لشرح الآيات الشريفة المتعرضة للأحكام الشرعية وكتاب (شرح الإرشاد) وهو فقه استدلالى مبسوط ، شرحاً لكتاب (إرشاد الأذهان إلى أحكام الإيمان) للعلامة الحلي رحمته الله وقد يسمى بحاشية الإرشاد أو مجمع الفائدة أو

كتاب وسائل الشيعة للحر العاملي هو المرجع الذي لا يستغنى عنه الفقيه في أي باب من أبوابه ، لأنه جمع الأحاديث المروية عن أهل البيت عليهم السلام ، المودعة في الكتب الأربعة المشهورة ، وأضاف إليها أحاديث كثيرة استخرجها من كتب الأصحاب المعتبرة تربو على مائة وثمانين كتابا .



جمع البرهان ولعل مرجع اختلاف الأسماء إلى بعض تعبيراته عليه السلام عنه بذلك . وقد استوفى فيه أكثر أبواب الفقه مستعرضا جملة من آراء من سبقه من الأعلام عليهم السلام ، ممزوجا بكثير من تحقيقاته ومبتكراته العلمية والتي أهلتها لتصدر الحوزة العلمية النجفية وأعطته منزلة كبيرة من الاحترام العلمي ، فضلا عن هالة القداسة التي ميزته عن سبقه من أعلام الإمامية في العصور الوسيطة ، فعن المجلسي عليه السلام قوله في مجاره : (والمحقق الأردبيلي في الورع والتقوى والزهد والفضل بلغ الغاية القصوى ، ولم اسمع بمثله في المتقدمين والمتأخرين^(١))

هذا مع المكانة المرموقة في نفوس ملوك عصره فقد نقل أنه كتب للشاه طهماسب^(٢) رسالة يوصيه فيها بأحد العلويين فقام الشاه إجلالا لها ، ولما قرأها فإذا به وقد وصفه فيها بالأخ فامر بوضعها في كنفه وأوصى أنه إذا دفنتموني فضعوا الكتاب تحت راسي ، احتج به على منكر ونكير بأن المولى أحمد الأردبيلي سماني أخاه^(٣) .

مضافا إلى انطفاء جذوة العلم في الحلة الفيحاء بهجرة آخر من بقي من علمائها المشهورين وهو الفقيه المتكلم (الشيخ أحمد بن محمد بن فهد الحلبي الأسدي^(٤)) صاحب كتاب (المهذب البارع) في الفقه إلى كربلاء المقدسة ووفاته فيها عام (٨٤١ هـ)^(٥) .

تلمذة صاحبي المدارك والمعالم على الأردبيلي

ويكفي أن تكون عمدة استفادة صاحبي المدارك (السيد محمد بن السيد علي الموسوي الجبعي) المتوفى عام (١٠٠٩ هـ)

(١) سفينة البحار ج : ١ ص : ٣٠٤

(٢) هو السلطان العادل ابن الشاه اسماعيل الاول الصفوي ولد عام (٩١٩ هـ) وكان معاصرا للمحقق الكركي ووالد الشيخ البهائي وكان قد تسلم الملك عام (٩٣٠ هـ) وتوفي عام (٩٨٤ هـ) هـ فتكون سنين ملكه ٥٤ قضاها في خدمة العلم والعلماء ونشر مذهب اهل البيت والذب عنهم .

(٣) روضات الجنات ج : ١ ص : ٨٤

(٤) هو الشيخ الفقيه الزاهد ابو القاسم احمد بن محمد بن فهد الحلبي الاسدي له المهذب البارع وعدة الداعي والتحصين وغير ذلك ولد عام (٧٥٧ هـ) وتوفي سنة (٨٤١ هـ) ودفن في كربلاء وقبره مزار مشهور .

(٥) سفينة البحار ج : ٢ ص : ٣٨٨

والمعالم (الشيخ حسن بن زيد الدين الشهيد الثاني) المتوفى عام (١٠١١ هـ) ، من المقدس الأردبيلي عليه السلام ، فقد ذكر في ترجمتها أنهما هاجرا من بلدتهما إلى النجف الاشرف والتقيا به وطلبا منه توجيههما للدراسة المفيدة بأقصر وقت ممكن فالتزم بتدريسهما وتربيتهما تربية علمية وأخلاقية عالية ، فنالا مرتبة مرموقة في ذلك وأصبحا موضع ثقته واعتماده ، وصادف اشتغالهما عنده زمن تأليفه شرح الإرشاد ، فرما كان يعرض عليهما بعض فصوله ، لإصلاح بعض عباراته ، اطماننا منه بحسن فهمها ، وسلامة تعبيرهما .

تعريف بكتابي المدارك والمعالم

وبعد أن استمكننا من الفقه وأصوله على يديه الشريفين هاجرا إلى بلديهما فألف الأول كتابه الفقهي النفيس (مدارك الأحكام في شرح شرايع الإسلام) المشحون بالأقوال والتحقيقات المهمة التي فتحت المجال الواسع لكثير ممن تأخر عنه من الفقهاء في محاولة الوصول إلى أعلى مراتب النضج ، وعكف عليه جمع من طلاب الفقه لدراسته ، فكان - إلى فترة قريبة - يعتبر أحد المراجع التي لا بد أن يستوعبها الطالب في مراحل تحصيله العلمي ، وقد أدركنا بعض فضلاء النجف الاشرف يكثر من تدريسه ، وينصح بإمعان النظر فيه والاستفادة من درره الثمينة . واشتهر الكتاب بتبحره في العبادات وخاصة الحج أكثر من غيره من أبواب الفقه .

وألف الثاني كتاب خالد الذكر (معالم الدين وملاذ المجتهدين) المعروف في أوساط الحوزة العلمية بالمعالم وكان مقصوده عليه السلام أن يؤلف في الفقه كتابا يعكس آرائه العلمية ، وما يمتاز به من دقة في النظر خصوصا أنه كان - كقرينه المتقدم - من المتشددين في قبول أخبار الآحاد فشرع في تأليف هذا الكتاب ، وابتدأه بالحديث عن فضل العلم ، والحث على طلبه ، ثم بمقدمة تضمنت جملة من آرائه في أصول الفقه ، وهي التي أصبحت بعد ذلك الكتاب الدراسي المشهور في هذا العلم حتى عصورنا المتأخرة ، وتصدى جملة من الأعلام لشرحه والتعليق عليه ، فأصبح السبب الرئيس

لشهرة مؤلفه عليه السلام ، وصار علما له يعني عن ذكر اسمه أو نسبة الشريف ، مع أنه كتبه مقدمة للفقه ، إلا أنه لم يبرز من قلمه غير كتاب الطهارة ، فكأنه مصداق للقول المشهور : ما قصد لم يقع ، وما وقع لم يقصد ، إذ انه إنما كتب في الأصول مقدمة للدخول في الفقه ، لكنه لم يكمل ما أراد من الفقه ولم يلق ما كتبه منه - وهو كتاب الطهارة - الاهتمام اللائق به حيث أن مقدمته الأصولية - التي كتبها مدخلا للفقه - حظيت بالنصيب الوافر من الاهتمام ، ولقيت فوق ما تستحق من الملاحقة والمتابعة من الأعلام حتى كأنه لم يكن لمؤلفها سواها .

هذا وقد تقدم في فصل (الفتح الفقهي والفكري الإمامي في إيران) أن الشيخ الأجل المولى عبد الله بن عبد الحسين التستري عليه السلام كان من أكابر تلامذة المقدس الأردبيلي أيضا ، وأن لهذا المولى جهودا عظيمة مشكورة في نشر الفقه والحديث في إيران ، ويكفيه فخرا اعتراف المجلسي الأول عليه السلام (والد صاحب البحار) بأن أكثر فوائده من إفاداته ، فضلا عن شرحه الواسع لقواعد العلامة الحلبي عليه السلام الذي جعله تنميما لجامع المقاصد للمحقق الثاني .

بعض أوجه النشاط العلمي في النجف في هذا العصر

ثم إن النشاط العلمي في النجف الاشرف لم يقتصر على الفقه وأصوله ، بل اتسع ليشتمل كثيرا من فنون المعرفة فقد أُلّف الملا عبد الله بن شهاب الدين اليزدي المتوفى عام (٩٨١ هـ) كتابه المنطقي المشهور (الحاشية) المشحون بالتحقيقات في بابه بعبارة مختصرة قد تصل إلى حد الإغلاق ، ومع ذلك فقد أصبح الكتاب الدراسي الأشهر في هذا الفن ولا يزال كذلك ، وإن قل الاهتمام به بعد صدوره كتاب (المنطق) للحنة الشيخ محمد رضا المظفر عليه السلام فإنه^(١) وإن استقى أكثر مطالبه من الحاشية إلا

(١) هو المصلح الشيخ محمد رضا ابن الشيخ محمد بن عبد الله المظفر ولد عام (١٣٢٢ هـ) في النجف الاشرف شارك مع مجموعة من علماء في الحوزة في عملية اصلاحية لمناهج الدراسة واثمرت هذه العملية تاسيس منتدى النشر وكلية الفقه توفي في عام (١٣٨٣ هـ) هـ ودفن في النجف الاشرف تاركا ارثا علميا كبيرا منه كتاب المنطق واصول الفقه وعقائد

أنه جرى فيه على الطريقة الحديثة في التأليف ، مهتما بتوضيح المطالب ، وسلاسة التعبير

وألف الشيخ فخر الدين الطريحي عليه السلام المتوفى عام (١٠٨٥ هـ) ، كتابه المشهور (مجمع البحرين) في فقه القرآن والحديث ولغتهما ، جرى فيه مجرى مفردات الراغب الأصفهاني في غريب القرآن ، ونهاية ابن الأثير في غريب الحديث ، فجمع فيه بين الفضيلتين ، واستحق بذلك أن يسمى مجمع البحرين . وأسدى بذلك للمكتبة الإمامية يدا بيضاء جليلة في هذا الباب تذكر فتشكر . ولذا قل أن تجد واحدا من فضلائنا عاريا عن هذا الكتاب الثمين .

كما وألف الشيخ أحمد بن إسماعيل الجزائري المتوفى عام (١١٥١ هـ) كتابه (آيات الأحكام) على غرار كتابي المقدس الأردبيلي والمقداد الحلبي السيوري في هذا الموضوع إلى غير ذلك من العلوم ، كالنفسير والعقائد والحكمة واللغة والتاريخ والرجال ، فضلا عن الفقه وأصوله والحديث ، وقد أتعب المحقق الفقيه الشيخ أغا بزرك الطهراني عليه السلام نفسه الزكية في إحصائها والتعريف بها في كتابه الذريعة ، وغيره من المؤلفات الموضوعية في هذا الفن .

ظهور الاسترادي والحركة الاخبارية

وظهر في هذه الفترة المحدث محمد أمين بن محمد شريف الاسترادي المتوفى عام (١٠٣٣ هـ) ، وهو تلميذ صاحبي المدارك والمعالم عليهم السلام ، فقد استعرض في كتابه (الفوائد المدنية) بعض الآراء الفقهية ، والأصولية ، وقواعد الحديث ، التي درج على الاعتماد عليها في مقام الاستنباط فقهاؤنا الأعلام عليهم السلام من عصر الغيبة الصغرى إلى عصر المحدث المذكور .

إلا أنه أكثر الطعن على الفقهاء في ذلك ، وخاصة ما اشتهر عن السيد ابن طاووس عليه السلام وتبعه من تأخر عنه خصوصا تلميذه العلامة الحلبي عليه السلام من تقسيم الأحاديث الواردة عن المعصومين عليهم السلام إلى الأقسام الأربعة المشهورة : الصحيح والحسن والموتق والضعيف ، مدعيا أن ذلك من الأمور المبتدعة ، وأن جميع ما في الكتب الأربعة المعروفة مقطوع الصدور ، مستغن عن البحث في السند ، وأن ديدن العلماء على ذلك .

وقد أحدثت هذه الأفكار شرخا عميقا في صفوف الطائفة

الإمامية وغيرها .

يعد كتاب جواهر الكلام أضخم موسوعة فقهية كاملة لاشتماله على خلاصة أفكار الفقهاء المتقدمين والمتأخرين مع غاية التحقيق والتدقيق والفهم الجيد للروايات الشريفة ولسائر مدارك الأحكام ، المنبىء عن سليقة عرفية سليمة وذوق فقهي عال .

فانقسمت على إخبارية وأصولية ، لكن انبرى للرد على المحدث المذكور جماعة من الأعلام بما فيهم بعض الأخباريين المعتدلين كصاحب الحدائق (الشيخ يوسف البحراني) حيث تعرض في مقدمة كتابه هذا وكتابه الآخر (الدرر النجفية) إلى إبطال ما ادعي من الفروق بين المدرستين : الأصولية والإخبارية ، وأرجع أكثرها إلى ما يشبه النزاع اللفظي بين الفئتين ، لذهاب بعض أعلام إحدى الفئتين إلى ما يعرف اختياره وتبنييه من قبل الفئة الأخرى ، من دون اختصاص لأحدهما بشيء تمتاز به عن الفئة الثانية ، فهو في الحقيقة يشبه اختلاف المجتهدين في كثير من المسائل الفقهية أو الأصولية أو الرجالية أو الحديثية ، من دون أن يقتضي اعتبار المخالف ممثلاً لطائفة أو مدرسة تختلف عن غيرها في أصول تكوينها ، بل يندرج الكل ، سواء كان أخبارياً بالمعنى المدعى أم أصولياً ، في طائفة واحدة ، لا تختلف في أصول عقائدها أو فروعها الفقهية إلا كما يختلف أي مجتهد مستقل في الرأي عن غيره من المجتهدين .

تعريف بكتاب الحدائق

ومن ثم لم يستمر الزخم الذي اندفعت به هذه الفكرة ، وإن بقي لها بعض الآثار المتفرقة ، وخاصة في بلاد القطيف وخورستان . بل ثبت العكس من ذلك ، فقد اتسع البحث الفقهي والأصولي وظهرت جملة من المؤلفات الفقهية والأصولية القيمة بما فيها كتاب (الحدائق الناضرة في فقه العترة الطاهرة) للفقير المحقق الشيخ يوسف البحراني رحمته الله ، حيث يعتبر أول أكبر موسوعة فقهية شاملة على أكثر الفروع في الأبواب التي وصل إليها قلمه الشريف ، إذ لم يسعفه الأجل لإنهائها ، بل بلغ بها إلى كتاب الظهار ، وقد أكمل باقي أبوابها إلى كتاب الكفارات تلميذه وابن أخيه (الشيخ حسين بن محمد البحراني) .^(١)

(١) كان من كبار علماء عصره ومشاهيرهم وكان من المصنفين المكثرين تخرج على عمه صاحب الحدائق فكان له قرعة عين واوصى له بكتبه لذلك تصدى لتنظيم (الحدائق) وسماه (عيون الحقائق الناضرة في تنميط الحدائق الناضرة) توفي مقتولاً شهيداً عام (١٢١٦هـ) .

ويمتاز الكتاب بحسن التفرغ ، والتعرض لأقوال العلماء ومحامتها بأدب جم مختاراً ما يوافق دليلاً منها ومعرضاً عما لا يساعده الدليل مستقصياً - ما استطاع - الأخبار الشريفة الواردة في كل فرع متمنياً أن يتكفل كتابه هذا بتحقيق ما يحتاجه الفقيه من أصول وفروع ، ومغنياً عن الرجوع إلى غيره كما جاء في مقدمته . ولا زال إلى الآن مصدراً مهماً يعتمد عليه الفقهاء والمدرسون مشهوداً له بحسن الأمانة والصبر على المتابعة . ولعل الفضل - كل الفضل - في كسر شوكة الحركة الأخبارية يرجع إلى الجهود الجبارة التي بذها الأستاذ الأكبر الوحيد البهبهاني رحمته الله . فأثرت عن ظهور جملة من الأعلام كالسيد بحر العلوم ، وصاحب الرياض وكشف الغطاء ، والمحقق الاعرجي ، وخاتمة الفقهاء المحققين الشيخ محمد حسن النجفي (صاحب الجواهر) وأمثالهم (رض الله عنهم وأرضاهم) بما قدموا للعلم من أباد بيض تعتبر غرة في جبين الدهر ، فجزاهم الله تعالى أفضل جزاء المحسنين . وبهذا ينتهي الدور الثالث ، وهو دور النضج ، ويبدأ الدور الرابع ، وهو دور التكامل .

الدور الرابع : دور التكامل

تعريف بالوحيد البهبهاني

ويبدأ بظهور استاذ الفقهاء المتأخرين الشيخ محمد باقر بن الشيخ محمد أكمل البهبهاني رحمته الله المعروف بالوحيد (١١٨-١٢٠٨هـ) فقد وصفته كتب التراجم بأجمل وصف ، فعن كتاب (تتميم أمل الآمل) للشيخ عبد النبي القزويني : (أنه فقيه العصر ، فريد الدهر وحيد الزمان وصاحب الفكر العميق والذهن الدقيق صرف عمره في اقتناء العلوم ، واكتساب المعارف والدقائق ، وتكميل النفس بالعلم بالحقايق ، فحباها الله باستعداده علوماً لم يسبقه فيها أحد من المتقدمين ولا يلحقه أحد من المتأخرين إلا بالأخذ منه) . وأمثال ذلك من الإطراء والثناء بما هو أهله وما يستحقه . وذكر له زهاء ستين مصنفاً أغلبها حواش على كتب الفقه والأصول والرجال والمشهور



منها حاشيته على المدارك والمفاتيح .

والذي يبدو لي أن هذا الثناء العظيم والتقدير الجم الكبير إنما كان له باعتبار أن له اليد الطولى المشكورة في إيقاف المد الأخباري -الذي تقدمت الإشارة إليه- بل الإجهاز عليه ، حيث كان له الفضل الأكبر في تربيته جماعة من أعظم الفقهاء والمجتهدين الذي اشتهروا بالضعف في الفقه والأصول ، ويكفيه فخراً أن يكون من تلامذته أمثال : بحر العلوم ^(١) ، وكاشف الغطاء ، وصاحب الرياض ، والسيد مهدي الشهرستاني (١٢١٦) ، والشيخ النراقي ، والمحقق الاعرجي (ت ١٢٤٠هـ) ، واضرابهم ممن كان لهم المرجعية في العلم والتقليد ، وتشد إليهم الرحال لظف ثمارهم العلمية البانعة .

هذا مع شدة احترام معاصره المحقق الشيخ يوسف البحراني رحمته الله المعدود من أعلام الأخباريين المعتدلين ، بل خاتمتهم - لمقامه العلمي ، وإشادته بورعه وتقواه ، مما أكسبه الاحترام والهيبه في نفوس الجميع وجعله أهلاً لتسليم دور الريادة في تنقيح المباني الأصولية والفقهية حتى استحق مجدار تامة لقب (الوحيد) .

والظاهر من تصفح حياة هذا المجاهد العظيم أن مجالسه في كربلاء وغيرها أثناء درسه الشريف وخارجه كانت مدرسة سيارة أخذت على عاتقها تهذيب الفقه والأصول مما علق بهما من أوضار المخالفين والشواذ الذي خرجوا عن الجادة الوسطى التي سلكها أعظم علمائنا من لدن الشيخ المفيد رحمته الله إلى العصر الحالي .

وقد أعطى تصدي الشيخ الوحيد رحمته الله لإبطال ما قد يتمسك به بعض حملة مشعل الفكرة الأخبارية دفعة قوية لعلمي الفقه

(١) السيد محمد مهدي بحر العلوم كان زعيم الطائفة الامامية في عصره ولد في كربلاء سنة (١١٥٥هـ) ودرس فيها وحضر على والده السيد مرتضى وعلى الشيخ يوسف البحراني والوحيد البهبهاني ، وانتقل إلى النجف الاشراف ودرس فحضر على محمد مهدي الفتوني ومهر في الفقه والاصول والحديث والرجال والتفسير وكان مناظراً قديراً ذا اطلاع واسع على المذاهب الاسلامية وعلى التوراة تصدى لمناظرة علماء اليهود في بلدة الكفل صنف كتباً ورسائل منها المصابيح في الفقه ، الفوائد الرجالية ، وغيرها توفي في النجف الاشراف سنة (١٢١٢هـ) .

والأصول للترقي في مدارج الكمال حتى أنتجت أفكار صفة تلامذته ومن أخذ عنهم رحمته الله أهم مؤلفات الطائفة الحقة والمحنة في الفقه والأصول مثل (المصابيح) للسيد محمد مهدي بحر العلوم ، (رياض المسائل) للسيد علي الطباطبائي ، (وسائل الشيعة) للمحقق المقدس الاعرجي ، (كاشف الغطاء) للفقيه الأكبر الشيخ جعفر النجفي ، (جواهر الكلام) لشيخ الفقهاء المتأخرين الشيخ محمد حسن النجفي ، (القوانين في الأصول) للمحقق القمي ^(٢) و(المكاسب والرسائل) للمجدد مرتضى الأنصاري ، و(مصباح الفقيه) للمحقق الشيخ آغا رضا الهمداني ^(٣) ، وانتهاء بكتاب (مستمسك العروة الوثقى) لسيدنا الأعظم السيد محسن الطباطبائي الحكيم إلى غير ذلك من الأسفار القيمة التي بلغت القمة في الإحاطة ، وحسن التفرغ ، والدقة ، وتنقيح المباني الفقهية والأصولية . ولا زالت خطى فقهاءنا رحمته الله في النجف الاشراف وغيرها سائرة على عين الصراط المستقيم ، الذي كان للوحيد البهبهاني وأعلام تلامذته الفضل الأكبر في تعبيده وتيسير الوصول إليه ، فجزاه الله تعالى عن الحق وأهله خير جزاء وأوفاه ، إنه سميع مجيب . .

استعراض لأهم الكتب الفقهية في هذا الدور

ويحسن بنا إلقاء نظرة - ولو عاجلة - على بعض هذه الكنوز اعترافاً لأهلها بفضلهم ، وتعزيزاً للحق وأهله ولتكون مثلاً ناصعاً لما وصلت إليه البحوث الفقهية في هذا الدور ولنبدأ بـ :

كشف الغطاء

(الأول) : كتاب (كشف الغطاء) تأليف الشيخ جعفر الشيخ خضر الجناحي الحلبي المتوفى عام (١٢٢٨هـ) فهو مؤلف جليل مشتمل على مقدمتين : الأولى في أصول العقائد ، والثانية في

(٢) ابو القاسم بن المولى محمد حسن الجيلاني المعروف بالمرزا القمي ولد عام (١١٥١هـ) وتوفي عام (١٢٣١هـ) وقبره الشريف في قم المقدسة مزار مشهور وله عدة مصنفات مهمة كالقوانين والغنائم والمناهج ومرشد العوام وجامع الشتات .

(٣) الشيخ محمد رضا بن الشيخ محمد هادي الهمداني النجفي ، من مشاهير الفقهاء ، أخذ المبادئ والسطوح في مدينة همدان ، ثم غادرها إلى النجف الاشراف ، فحضر دروس المحقق الأنصاري ، ثم السيد محمد حسن المجدد الشيرازي حيث لازم درسه سنين طوال .

يتميز كتاب مستمسك العروة الوثقى بكثرة تتبعه لأقوال العلماء المتقدمين والمتأخرين بل وحتى بعض المعاصرين له من أساتذته وغيرهم وإن لم تكن لهم مؤلفات فقهية، وتدقيقه في المسائل وإرجاع الفروع إلى مبانيها المعتمدة ناهجا أقصر الطرق الموصلة للنتائج المطلوبة.

أصول الفقه وقد جمع فيهما رحمهما الله أهم مسائل العلمين فأوعى، ويكفي شاهدا على ذلك ما نقله الشيخ النوري في خاتمة (مستدرك الوسائل) عن الشيخ الأعظم المرتضى الأنصاري رحمهما الله: أن من يتقن أصول كشف الغطاء فهو عندي مجتهدا وحاشا الشيخ الأعظم المعروف بشدة ورعه وتقواه ومنزلته العلمية أن يتسامح في أمثال هذه الشهادة.

هذا وقد اشتمل (كشف الغطاء) على أبواب العبادات إلى أواخر الجهاد، ثم ألحقه بكتاب الوقف وما يتبعه، وقال عنه الشيخ النوري وفي مستدركه، (وقد فاق فيه من تقدمه، مع أنه صنفه في بعض أسفاره، ولم يكن عنده من كتب الفقه غير قواعد العلامة رحمهما الله). ونقل عن أستاذه أنه سأل صاحب الجواهر رحمهما الله بقوله: (لم أعرضت عن شرح (كشف الغطاء)؟ ولم تؤد حقه وهو شيخك وأستاذك، وفي كتابه من المطالب العويصة، والعبارات المشككة، ما لا يحصى قال: يا ولدي؛ أنا عجزان من أووات الشيخ رحمهما الله)^(١) يعني لا استطيع استنباط مدارك الفروع المذكورة فيه بقوله كذا، أو كذا.

ويشهد تعبير الشيخ الأعظم عن كاشف الغطاء في مكاسبه ببعض الأساطين، على احترامه وإجلاله لمقامه العلمي وتبحره في الفقه وأصوله.

رياض المسائل

(الثاني): كتاب (رياض المسائل في بيان الأحكام بالدلائل) المعروف في الأوساط العلمية مختصرا بالرياض تأليف أبي المعالي الفقيه السيد علي السيد محمد الطبطبائي الحائري (١١٦١ - ١٢٣١ هـ). وهو أكبر شرح منشور ومشهور لكتاب (المختصر النافع) للمحقق الحلي رحمهما الله الذي هو اختصار لكتابه القيم (شرائع الإسلام) وجرى فيه على نسقه من حيث التبويب مع وضوح عباراته على اختصارها واستيعابها لأكثر الفروع المذكورة في الشرائع.

(١) المستدرك ج: ٣ ص: ٣٩٨

(٢) المستدرك ج: ٣ ص: ٣٩٨

ونقل الشيخ المامقاني في تنقيحه عن أسنة المشايخ أن تبحر صاحب الرياض كان في الأصول أكثر منه في الفقه بخلاف شريكه في التحصيل الميرزا القمي، فطلب كل واحد من صاحبه أن يؤلف في غير ما هو متبحر فيه، فألف السيد رحمهما الله الرياض والميرزا القمي رحمهما الله القوانين^(٣).

ويشهد لذلك أنه أكمل تأليفه عام (١١٩٢ هـ) وعمره إذ ذاك إحدى وثلاثون سنة ومن عجيب المصادفات - إن صحت الحادثة - أن لا يشتهر أي من العلمين بغير هذين الكتابين، وما ذلك إلا لخلوص النية وصفائها. ومن محاسن الرياض كونه دورة فقهية استدلالية كاملة، ابتداءً من كتاب الطهارة، وانتهاءً بكتاب الديات. والظاهر من حاله متابعتة لشرح اللمعة الدمشقية، ومن ثم قد ينفع في حل بعض غوامضها، بل قد ينقل فقرة منها أحيانا مضيئا إليها ما يراه ضروريا ولو لتوضيح المراد من دون أن يشير إلى المصدر. قال بعض أعلام تلامذته عنه: (وهو في غاية الجودة جدا لم يسبق بمثله، ذكر فيه جميع ما وصل إليه من الأدلة والأقوال على نهج عسر على من سواه، بل استحال)^(٤).

والمقول عن صاحب الجواهر رحمهما الله أنه عندما ألف جواهره لم يقصد فيه قصد المصنفين من التفنن والتأنق في العبارة، وإلا لانتهج صاحب الرياض. بل قصد تجميع المصادر مضيئا إليها ما عنده من ملاحظات عليها لينتفع به في أسفاره بعيدا عن كتبه، ومن ثم قد ينقل كثير من عبارات الأصحاب بنصها وكأنها عباراته من دون أن ينسبها لأصحابها، وقد أحسن رحمهما الله إذ لم يجر على نسق الرياض، وإلا لم يكن كتاب الجواهر كما هو الآن.

والملاحظ على هذا الكتاب الجليل كثرة استدلاله بالإجماع، معتبرا أنه هو الحجة في المسألة، مع أنها محل خلاف، وإن وجد بضمونه رواية، وكأن كل من رواها أو ذكرها يرى حجيتها، وهو خلاف الاصطلاح، كما حرر في محله من الأصول.

كما أنه يكثر من تعقيب مطالبه بالأمر بالتأمل، بقوله رحمهما الله: (فتأمل) الموجب للتوقف عن الجزم في المسألة ومن ثم ألف بعض

(٣) تنقيح المقال ج: ٢ ص: ٣٠٧.

(٤) تنقيح المقال ج: ٢ ص: ٣٠٧.



العلماء كتابا في شرح تأملاته. هذا مع عدم خلو عباراته - غالباً - عن الإغلاق، ولذا يصعب فهمه على أغلب الطلبة حتى من كان في مراحل متقدمة من دراسته، فاحتاج فهمه - عادة - للحضور عند أستاذ مختص فأصبح بذلك من الكتب الدراسية في الحوزة العلمية، إلا أن، أغلب الطلاب لا يكملون دراسته بل يكتفون ببعض كتبه للتمرين على فهم العبارات المغلقة، أو للاستئناس بكلمات القديما. ومع ذلك فهو من الكتب الفقهية المعتمدة والمفيدة خصوصا إذا أعطي حقه من التأمل والتروي.

جواهر الكلام

(الثالث): كتاب (جواهر الكلام في شرح شرايع الإسلام) تأليف خاتمة الفقهاء المتبحرين الشيخ محمد حسن النجفي رحمهما الله المتوفى عام (١٢٦٦ هـ) والمنتبهة إليه المرجعية العامة بعد شيخه كاشف الغطاء رحمهما الله.

يعد هذا المؤلف الجليل أضخم موسوعة فقهية كاملة لتفرده باشماله على خلاصة أفكار الفقهاء المتقدمين والمتأخرين مع غاية التحقيق والتدقيق والفهم الجيد للروايات الشريفة ولسائر مدارك الأحكام، المنبئة عن سليقة عرفية سليمة وذوق فقهي عال وقد استكمل رحمهما الله شرح أبواب الشرائع من كتاب الطهارة إلى آخر الحدود والديات ويمتاز عن أكثر المؤلفات الموسوعية التي تستغرق وقتا طويلا لانجازها بأن أواخره كأوائله وهي مثل أواسطه في الجودة والدقة والاستيعاب بنفس واحد مبني على الاستقصاء والتحقيق من دون أن يعرف الكلل والملل إليه سبيلا فلا غرو أن يعد من عجائب الدهر لأنه الدرّة البتيمة التي لم تشفع بمثلا إلى عصورنا الحاضرة. ولعلها لن تشفع بمثلا حتى في العصور اللاحقة أيضا.

مع أن المنقول عنه رحمهما الله أنه لم يقصد في تأليفه قصد المصنفين، وإنما كتبه تذكرة لنفسه عندما يكون خارج النجف الاشرف بعيدا عن مصادره الفقهية ولعل ذلك علامة إخلاصه وصفاء نيته ومن ثم أصبح لا يتخلى عن مراجعته فقيه ممن تأخر عنه، لإدراكهم استيعابه لخصوصيات المسائل والنكات الدقيقة في أدلة الأحكام

فكأنهم يرون توقف استكمال الفحص الواجب على الفقيه في مقام الاستنباط على الاطلاع على ما فيه من جواهر وقد سبقت الإشارة إلى الكلمة المنقولة عنه رحمهما الله وحاصلها أن من استكمل فحص كتاب الوسائل للحر لعاملي وجامع المقاصد للمحقق الكركي والجواهر فقد خرج عن عهدة وجوب الفحص.

وقد سمعت من بعض أساتذتي رحمهما الله أن سيدنا الأعظم الإمام الحكيم رحمهما الله في بداية رجوع الناس إليه في التقليد وقبل أن يؤلف شيئا من كتب الفتوى كان إذا ابتلي بمسألة يراجع الجواهر ويفتي حسب ما يتوصل إليه نظره الشريف بمعونه. وما ذلك إلا ثقة منه رحمهما الله باشمال الجواهر على عمدة ما يحتاجه الفقيه في مقام الاستنباط.

هذا وقد انتشر الكتاب حتى في أيام مؤلفه رحمهما الله ثم طبع عدة طبعات حجرية، إلا أنه طبع أخيرا في النجف الاشرف طبعة حديثة محققة ومصححة في أكثر من أربعين مجلدا مما يسر الاستفادة منه للمراجع كثيرا.

المكاسب

(الرابع): كتاب (المكاسب) للشيخ الأعظم مرتضى الأنصاري رحمهما الله (١٢١٤ - ١٢٨١ هـ) وقد يسمى أيضا بكتاب المتاجر. وقد صدره رحمهما الله بالبحث عن أكثر المكاسب المحرمة في مسائل مستوفيا جهده في الإحاطة بمداركها من أدلتها التفصيلية بدقة متناهية، وصدر رحيب في استقصاء الأقوال والأدلة كما هو ديدنه في سائر مؤلفاته ثم ركز البحث فيه على كتاب البيع وخصوصياته لاشترائه مع أكثر المعاملات في المباني والشرائط العامة وألحقه بالبحث عن الخيارات المعروفة في أبواب المعاملات.

وهو مشحون بالتحقيقات الفقهية والمطالب الأصولية بما يقصر القلم عن الإحاطة بدقائقها (لا يعرف الشوق إلا من يكابده)، ولذا عكف عليه طلاب الفقه درسا وتدرسا وشرحا لمطالبه العميقة ولعباراته الشائكة أحيانا فأصبح طالب العلم لا يستغني عن دراسته مقدمة للاستفادة من حضور الأبحاث العالية.

وقد طبع الكتاب عدة طبعات حجرية وحديثة وكان موضع عناية جملة من الأعلام المتأخرين فتصدى لشرحه والتعليق عليه عدد من تلامذة الشيخ رحمهما الله وغيرهم كالمحققين الأعلام: الشيخ

إن النشاط العلمي في النجف الأشرف

لم يقتصر على الفقه وأصوله، بل اتسع ليشتمل كثيرا من فنون المعرفة

حبيب الله الرشدي^(١)، والشيخ محمد حسن المامقاني^(٢)، والشيخ الخراساني^(٣) (صاحب الكفاية)، والسيد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي^(٤) (صاحب العروة)، والشيخ الميرزا محمد حسين النائيني^(٥)، والشيخ محمد حسين الأصفهاني، والشيخ محمد جواد البلاغي^(٦)، والميرزا علي الايرواني، والميرزا فتاح الشهيد، وسيدنا الأعظم، وأستاذنا السيد الخوئي (رضي الله عنهم جميعا

(١) حبيب الله بن ميرزا علي خان ولد عام (١٢٣٤هـ) في قرية من قرى كيلان سافر الى النجف لتلمذه على فقيه عصره صاحب الجواهر ثم الشيخ الانتصاري، تسلم زعامة الحوزة العلمية في النجف بعد وفاة السيد حسين الكوه الكرمي ومن ابرز مصنفاته بدائع الافكار في علم الاصول توفي عام (١٣١٢هـ) دفن داخل الصحن العلوي الشريف.

(٢) هو الشيخ محمد حسن بن الشيخ عبد الله المامقاني ولد عام (١٢٣٨هـ) في مامقان بايران كان عالما نحريا وفاضلا وخبيرا واصوليا وفقها من اشهر ملفاته بشرى الاصول وغاية الامال، توفي عام (١٣٢٣هـ). ودفن في مدينة النجف الاشرف بمقبرته الخاصة.

(٣) محمد كاظم بن حسين الهروي المشهدي الخراساني صاحب كفاية الاصول من مشاهير علماء الامامية ولد في مشهد سنة (١٢٥٥) هـ وقصد النجف الاشرف ودرس عند الشيخ مرتضى الانتصاري، والشيخ راضي بن محمد بن محسن المالكي والسيد محمد حسن الشيرازي وتصدى للتدريس وحضر عنده -المئات من المجتهدين وصف كتبها كفاية الاصول وهو من الكتب التجديدية التي نالها التوفيق الى يومنا هذا وله مواقف سياسية وجهادية هامة ابرزها تأييد الحركة الدستورية في ايران توفي سنة (١٣٢٩هـ).

(٤) هو السيد محمد كاظم بن السيد عبد العظيم الطباطبائي اليزدي النجفي، أحد الفقهاء الكبار في القرن الرابع عشر، والمرجع الديني الأعلى بعد رحيل المحقق الخراساني وقد ترك تراثا فقهيا مهمة ابرزه هو العروة الوثقى التي لازال عليها مدار البحث عند العلماء. توفي (رحمه الله) عام (١٣٣٧هـ) في النجف الأشرف، ودفن في الصحن الحيدري.

(٥) أحد أقطاب العلم بعد رحيل أستاذه المحقق الخراساني، وقد استقل بالتدريس وإلقاء المحاضرات بعد رحيله قرابة ربع قرن، فتخرج على يديه جمع غفير حملوا أفكاره وصاروا مراجع للعلم والفكر بعده. وكان السيد الخوئي أحد أبرز تلاميذه إذا جلس على منصة التدريس لا يبدأ بالدرس إلا بعد قراءة الحمد على روح أستاذه المحقق النائيني أداء لبعض حقوقه توفي عام (١٣٥٥هـ).

(٦) هو الشيخ محمد جواد ابن حسن ابن طالب البلاغي النجفي الربيعي ولد في النجف عام (١٢٨٢هـ) في بيت من اعرق وأقدم بيوتات النجف في العلم والادب حضرة درس الشيخ محمد طه نجف والاغا رضا الهمداني والشيخ الاخوند صاحب الكفاية كان له دور متميز في مواجهة الفكر التبشيري، ابرز كتبه المطبوعة الهدى الى دين المصطفى والاء الرحمان في تفسير القران والرحلة المدرسية. توفي عام (١٣٥٢هـ).

وأرضاهم) وغيرهم من فطاحل العلم ومراجع الأمة. واغلب هذه الشروح خلاصة دروس هؤلاء الأعظم في الفقه حيث يكون محور البحث فيها كتاب المكاسب ولا يستطيع هذه العجالة أن أحيط بشراحه وشروحه كما أنه ليس من أهدافي الأساسية لكتابة هذا البحث، وإنما ذكرت أشهرها لبيان الأهمية الكبيرة التي أولاهها له من تأخر عن الشيخ من الفقهاء اعترافا منهم بفضلهم وجزارة علمه وسعة اطلاعه على الأقوال والمباني. هذا وقد ألحقت بالكتاب في أواخر طبعاته عدة رسائل منفصلة كتبها الشيخ في العدالة والتقية والرضاع والموسعة والمضايقة في قضاء الفوائت وبعض مسائل الإرث وقاعدة (لا ضرر) وغير ذلك. فراجع.

مستمك العروة الوثقى

(الخامس): كتاب (مستمك العروة الوثقى) تأليف سيدنا الأعظم السيد محسن الطباطبائي الحكيم^(١) (١٣٠٦-١٣٩٠هـ)، وهو شرح استدلالى لكتاب (العروة الوثقى) لفخر المحققين المتأخرين السيد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي^(٢) المتوفى عام (١٣٣٧هـ) وهي رسالته العملية لمقلديه مشتملة على كثير من الفروع التي يبتلى بها عامة الناس وبعض الفروض للاحتتمالات البعيدة أيضا المبينة على نحو من الدقة وكثرة التخريجات وقد قدر لها أن تكون محط أنظار الفقهاء الذين جاءوا من بعده نظرا لاشتهارها ولطول مرجعته العامة التي استمرت زهاء ربع قرن فكثرت عليها الحواشي والتعليقات التي لا تخرج عن حدود الفتوى وطبعت عدة طبعات في العراق وخارجه.

إلا أنها مع اشتغالها على جملة من الفروع النادرة قليلة الابتلاء غير مستوفية لأبواب الفقه فالجح فيها غير مكتمل وكذا كتاب النكاح وخالية عن جملة من الكتب محل الابتلاء كالبيع ومحققاته والطلاق والإرث والقضاء وغير ذلك من أبواب الفقه لكن التوفيق بيد الله سبحانه يعطيه من يستحقه ومن يراه أهلا لذلك، تبارك وتعالى إنه حميد مجيد.

وقد شرح سيدنا الأعظم^(٣) كتب العروة الوثقى الفقهية



بأجمعها في أربعة عشر مجلدا فيما يقرب من أربعين سنة جاعلا لها محور بحثه الشريف الذي كان حافلا بأكثر أفاضل أهل العلم في الحوزة العلمية من شتى الطبقات والجنسيات وانتهى منه عام (١٣٨٥ هـ).

أهم مميزات المستمسك

والذي يميز (المستمسك) عن غيره - مع الاعتراف بفضل مؤلفه ومرجعته العامة التي استغرقت خمسا وعشرين سنة - كثرة تتبعه لأقوال العلماء المتقدمين والمتأخرين بل وحتى بعض المعاصرين له من أساتذته وغيرهم وإن لم تكن لهم مؤلفات فقهية، وتدقيقه في المسائل وإرجاع الفروع إلى مبانيها المعتمدة ناهجا أقصر الطرق الموصلة للنتائج المطلوبة بحيث يتيسر لمراجع الوصول لما يريد بسهولة منقطعة النظير. كل ذلك بعبارة موجزة فصيحة دقيقة قلما تتوفر في أي من كتب القدماء والمتأخرين مع كمال الاحترام والتجليل لمن لم يتعرض لأرائهم بالبحث والتمحيص. واضعا نصب عينيه أهمية المقال، لا أهمية القائل وقد يلحقه أحيانا إجلالا لصاحب الرأي بقوله: (ولعلنا لم نفهم مراده) كما نقل ذلك عنه^(٤) في بحثه الشريف بعض أفاضل تلامذته.

والكتاب مشحون بآخر ما توصلت إليه مدرسة النجف الاشرف - وهي أعمق وأدق مدرسة لتمثيل الفكر الإمامي من أفكار في الفقه وأصوله والحديث ورجاله، فهو - بالنسبة - صغير في حجمه، كبير في محتواه، ومن ثم لا يستغني عنه -عادة- مجتهد ولا مدرس ولا من يحضر بحوث الخارج الفقه، ولا طالب مجد في التحصيل العلمي، فكل من عاصره أو جاء من بعده إنما ينتهل من غيرهِ ويتناول من مائدته بحيث أصبح المصدر المهم لكافة أساتذة الفقه ومراجع التقليد فضلا عن فضلاء الحوزات العلمية وغيرها في شتى أقطار المعمورة.

وقد سمعت من استاذنا السيد الخوئي^(٥) أنه كثير ما كان يتمنى أن يؤلف دورة فقيه كاملة يودع فيها عصارة أفكاره على غرار المستمسك إلا أن ذلك لم يتيسر له لكثرة اشتغاله وإن جرى

على نسقه تقريبا في كتابه (مباني تكملة المنهاج) في القضاء والحدود والديات لكن الفرق بينهما كبير يعرفه أهله كما أنه^(٦) كان يكتفي بمراجعة الحدائق والمستمسك في التحضير لدرسه الشريف في اغلب الأحيان، معللا ذلك بأن السيد في المستمسك لا يترك مطلبها مهما لصاحب الجواهر^(٧) إلا ويتعرض له بالبحث والتمحيص وهذا يكشف عن أهمية هذا السفر الفقهي الجليل.

ولا زالت مدرسة النجف الاشرف ممثلة بجوزتها العلمية وباقي الحوزات العلمية المنتشرة في خارج العراق سائرة على خطى أعلامنا فقهاء هذا الدور الذي بلغ الفقه فيه منتهى الدقة والعمق.

علم الفقه

الفقه في اللغة والعرف هو الفهم والفظنة، ويناسبه ما عن أبي عبد الله الصادق^(٨): (أن رسول الله^(٩) خطب الناس في مسجد الحيف فقال: نضر الله عبدا سمع مقالتي فوعاها وبلغها من لم يسمعها فرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه^(١٠)). وكذا ما روي عن أمير المؤمنين^(١١): أنه كان جالسا في أصحابه إذ مرت به امرأة جميلة فرمقها القوم بأبصارهم فقال^(١٢): إن عيون هذه الفحول طوامح فإذا نظر أحدكم إلى امرأة تعجبه فليامس أهله، فإنما هي امرأة كامرأة [وفي رواية أخرى: فإن عند أهله مثل ما رأى] فقال رجل من الخوارج قاتله الله كافرا ما أفقهه!! فوثب القوم ليقتلوه، فقال^(١٣): رويدا فإنما هو سب بسب أو عفو عن ذنب^(١٤).

وأما الفقه في الاصطلاح فهو: العلم بالوظيفة الفعلية عن أدلتها التفصيلية: وبعبارة أوضح هو مجموع ما يعتمد من أدلة وقواعد تؤدي إلى معرفة الوظيفة الشرعية أو العقلية في الوقائع المبتلى بها فعلا أو تقديرا.

مقدمات الاستنباط

لكن استفادة ذلك ليست من الأمور المتيسرة لكل أحد، بل تتوقف على استكمال جملة أمور مجتمعة أو منفردة وهي بإيجاز:

١- معرفة معاني مفردات البيان الشرعي بكون الناظر فيه

(١) الوسائل ج: ١٨ ص: ٦٢.

(٢) الوسائل ج: ١٤ ص: ٧٣.

إن أهم مميزات مدرسة النجف الأشرف الأصولية وما يتبعها من مدارس للفقه الإمامي هو تركيز البحث وتجليته عن عدة قواعد مستقاة من النصوص الشرعية أو الأحكام العقلية والعقلانية تكون متأخرة في الرتبة عن النصوص الشرعية

من أهل اللغة العربية أو ممن يستطيع الوصول لمعانيها ولو بالاعتماد على من يسوغ الاعتماد عليه في معرفتها، بل وكذا ما يتركب منها من جمل مفيدة تعطي معنى تركيباً غير المعنى الانفرادي، وهو موقوف على الإحاطة بالأسلوب العربي في المحاور.

٢. ثبوت جواز الاعتماد على ظهور الكلام بحسب الفهم العرفي.

٣. صلاحية الظهورات القرآنية بالخصوص - لاستنباط الأحكام منها، بعد الفراغ عن المقدمة الثانية.

٤. دلالة نفي البأس على الجواز، ونفي الحل على الحرمة، وأمثال ذلك من المصطلحات الواردة في البيانات الشرعية والمعروف بمبحث الحقيقة الشرعية.

٥. الإحاطة بقواعد الاستدلال وتركيب المقدمات المنتجة للوصول إلى النتائج المطلوبة من الأدلة.

٦. إثبات صدور النص عن مصدر التشريع، أما بالعلم بصدوره عن المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، أو بإقامة الدليل على جواز الاعتماد على خبر الواحد عن مثله عن المعصوم.

٧. الإحاطة بكلمات أهل الاستدلال من الفقهاء لدخول ذلك في تحصيل الإجماع أو الشهرة، وللإستئضاء بها في العثور على بعض القرائن المفيدة في فهم النصوص.

٨. إثبات الملازمة بين حكم العقل وحكم الشرع، المبني على كبرى مسألة التحسين والتفويض العقليين، وما يتفرع عنها من مباحث الملازمات العقلية.

٩. معرفة القواعد التي يرجع إليها عند فقد النص أو ما يقوم مقامه سواء كانت عقلية أم شرعية.

١٠. الفحص عما قد ينافي الدليل المعتمد، ومعرفة ما يكون مرجحاً أو مرجعاً عند التعارض إلى غير ذلك مما قد يحتاجه الفقيه في مقام الاستنباط والذي يعرفه الخبراء.

فمثلاً عندما يراد معرفة حكم الشارع الأقدس في جواز تزوج الرجل ابنة مطلقته غير المدخول بها أو تزوج أم البنت المطلقة قبل الدخول بها عكس الفرض السابق، قد يجيب الفقيه

بالجواز في الأولى وبالحرمة في الثانية، معتمداً في ذلك على مثل حديث أبي حمزة (قال: سألت أبا جعفر عليه السلام - يعني الإمام الباقر عليه السلام - عن رجل تزوج امرأة وطلقها قبل أن يدخل بها، أتحل له ابنتها؟ قال، فقال: قد قضي في هذا أمير المؤمنين عليه السلام لا بأس به، إن الله يقول: (وَرَبَائِبُكُمُ اللَّائِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّائِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ) النساء ٢٣ ولو تزوج الابنة ثم طلقها قبل أن يدخل بها لم تحل له أمها قال: قلت له: أليس هما سواء؟ قال، فقال: لا ليس هذه مثل هذه إن الله يقول: (وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ) النساء ٢٣ لم يستثن في هذه كما اشترط في تلك، هذه هنا مبهمة ليس فيها شرط وتلك فيها شرط^(١).

كيفية استفادة الحكم من النصوص

إن استفادة الحكم في هاتين الواقعتين وغيرهما - ما لم يكن النص قطعي الصدور والدلالة - موقوفة على عدة مقدمات منفردة أو مجتمعة، وهي:

١. معرفة مفردات اللغة كالربيبية، والدخول، والحجور، والطلاق، والجناح، وغير ذلك مما يكون المرجع فيه أهل اللغة العربية فإن كان الفقيه عارفاً باللغة اكتفى بمعرفته وإلا احتاج إلى إلتماس معانيها في مظانها من قواميس اللغة أو كلمات الفقهاء وأهل المحاور ولا بد له من أن يقيم الدليل القطعي أو المنتهي إلى القطع على صحة الاعتماد على ذلك، إذ ليس وراء القطع - وهو الجزم والعلم - شيء آخر لأنه منتهى الأدلة هذا ما يتكفل به مبحث (حجية قول اللغوي) في أصول الفقه.

٢. معرفة المعنى التركيبي للجمل المؤلف منها النص الموقوفة على معرفة أساليب المحاورات العرفية، الموقوفة على الإحاطة بخصوصيات النحو العربي والنكات البلاغية المذكورة في محلها.

نعم لا يلزم أن يبلغ في ذلك مرتبة علماء اللغة ونحاتها وبلغاتها

(١) الوسائل ج: ١٤: ص ٣٥٧.



فلا يجب أن يكون مثل الخليل بن أحمد الفراهيدي^(١) أو سيبويه^(٢) أو الفراء^(٣) أو الشريف الرضي أو الجرجاني^(٤) واضرابهم، بل يكفي وصوله للفهم العرفي لمجموع الكلام، مفردات وتراكيب، ولو بالاستئضاء بأمثال كلمات هؤلاء الأعلام المعترف لهم بالخبرة والاطلاع.

٣. أنه بعد تحصيل الظهور العرفي من مجموع الكلام لا بد من إقامة الدليل على صحة الاعتماد عليه في مقام الاستنباط والتكفل به أيضاً علم أصول الفقه. فإن الشارع الأقدس لو كان له طريقة خاصة في تفهيم مقاصده غير الطريقة العرفية المعتمدة على العمل بالظهور في غير مورد النص لأوضحها لنا، ولوصل ذلك إلينا، لتوفر الدواعي لنقله وعدم الموانع عنه وحيث لم يكن شيء من ذلك فلا بد أن ينكشف بالقطع اكتفاء الشارع الأقدس بالظهورات العرفية، فتكون حجة له على المكلفين له أن يحاسبهم عند مخالفتهم، أو التقاعس عن العمل بها. ولا يصح منهم التوقف عن العمل بمقتضاها لاحتمال إرادة غير ظاهرها.

كما أنهم عند العمل بها يكونون معذورين لو كان مراد الشارع غير ظواهرها المفهومة لهم فالظهورات حجة للشارع ومعذرة للمكلفين أمامه، كما هي حجة على العقلاء ولهم فيما يكون بينهم من محاورات.

٤. الفراغ عن جواز الاعتماد على الظهورات القرآنية، بعد تسليم كبرى حجية الظهور عند العقلاء، إذ لو لم يجز العمل بالظهورات القرآنية لم يمكن الاستدلال بأكثر الآيات الشريفة.

(١) الخليل بن أحمد الأزدي البصري الفراهيدي، النحوي الإمامي، صاحب العربية ومنشئ علم العروض، ولد سنة (١٠٠) هـ، كان راسماً في لسان العرب ديناً ورعاً، قانعاً، متواضعاً، كبير الشأن، وثقة المخالف والمؤلف، أخذ عنه سيبويه وأكثر عنه أهل اللغة توفي سنة (١٧٥) هـ.

(٢) أبو بشر عمرو بن عثمان البصري امام العربية وشيخ النحاة الذي اليه ينتهون له كتاب معروف بالنحو اسمه (الكتاب) فارسي الاصل قدم الى البصري غلاماً ودرس عند الفراهيدي. توفي في شيراز عام (١٨٠) هـ.

(٣) أبو بكر يحيى بن زياد الاسلمي الكوفي المعروف بالفراء كان ابرع الكوفيين واعلمهم بالنحو واللغة وفنون الادب توفي عام (٢٠٧) هـ.

(٤) هو عبد القاهر أبو بكر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني ولد في جرجان وعاش فيها حتى توفي عام (٤٧١) هـ ويعتبر الجرجاني احد المؤسسين لعلم البلاغة وتعد كتبه من اهم الكتب المصنفة في هذا العلم.

نعم لا بد من استيعاب الفحص عما يصلح أن يكون بياناً شرعياً لبعض الظهورات القرآنية بعد فرض حجتيه في نفسه. فإن العقلاء لا يعتمدون على مجرد الظهور في محاوراتهم إن وجد ما يكون نصاً فيها أو أظهر منها أو شارحاً لها وهو صادر عن نفس المتكلم أو من يقوم مقامه وهذا ونحوه مما يتكفل ببحثه علم أصول الفقه أيضاً.

٥. القدرة على تركيب مقدمات الاستدلال بضم الصغريات إلى كبرياتها المنتجة، ومعرفة الأوليات اليقينية مثل استحالة اجتماع النقيضين، أو ارتفاعهما، واستحالة اجتماع الضدين، أو الملكة وعدمها، مع فرض اجتماع شرائط ذلك، وكذا استحالة الدور والتسلسل والخلف، ووجود الشيء بلا علة، أو تخلف المعلول عن علته ونحو ذلك. مع الإحاطة بمباحث الإمكان والامتناع، والقسمة وأجزاء الدلالة، وغير ذلك مما يتكفل به علم المنطق.

وإغلب هذه المباحث أصبح من المسلمات بين المفكرين الإسلاميين بعد خضوعهما لكثير من التمهيد وتوجد فيها مؤلفات متخصصة يغني استيعابها عن ضرورة فحصها وتكوين رأي شخصي فيها لكل مجتهد، مثلها مثل علوم اللغة والنحو والبلاغة، إلا أن يكون له رأي خاص به على خلاف ما عليه علماء ذلك الفن فإنه يتعين عليه حينئذ إقامة الدليل القطعي عليه.

٦. في صورة عدم اليقين بصدور البيان من مصدره الشرعي وهو صاحب الشريعة عليه السلام أو من يقوم مقامه من خلفائه المعصومين عليهم السلام كما هو الحال في أغلب البيانات الشرعية خصوصاً المشتبهة على فروع الأحكام، فإن المتواتر أو المحفوف منها بالقرينة القطعية الموجب للعلم قليل جداً. فلا بد من إقامة الدليل القاطع على حجية الخبر غير المقطوع بصدوره بسلوك إحدى الوسائل الآتية أو مجموعها:

الاكْتفاء بعمل المشهور من الفقهاء، وطرح ما عداه، وذلك إنما يعرف بتتبع أقوال قدماء الأصحاب، الذين يكشف عملهم بالخبر عن الحجية، وهجرهم له عن عدمها.

أو بالفحص عن أحوال رجال السنن، فمن ثبتت وثاقته يؤخذ بقوله ويترك عن غير وثاقته، ويكفي في طرح الخبر اشتغال السنن ولو على ضعيف أو مجهول واحد سواء عمل به

من يقارن بين آراء فقهاء الأمة الإسلامية وفقهاء القوانين المدنية الوضعية يعرف فضل فقهاءنا ﷺ، وسبقهم بمئات السنين لأحداث النظريات الغربية في العلاقات العامة والخاصة، مستضيئين في ذلك بتعاليم الإسلام .

المشهور أم لا . أو بالاكْتفاء بمحصل الوثوق من الخبر . والذي يتكفل بهذه الوسائل علم الحديث والرجال .
ومن ثم لا بد للفقهاء أن يستقل بالنظر في ذلك باختيار ما يؤدي إليه اجتهاده ، ولو بالاعتماد على أقوال علماء الجرح والتعديل ، بترجيح ما يراه حجة بينه وبين الله تعالى ، بعد إقامة الدليل القطعي على جواز الاعتماد على خبر الثقة ، أو الخبر الموثوق به ، كما هو المحرر بالتفصيل في مبحث حجية خبر الواحد ، الذي أصبح بذلك أحد أهم مباحث علم أصول الفقه ، لترتب الأثر العملي المهم عليه .

٧ . معرفة المصطلحات الواردة في النصوص الشرعية سواء كانت في القرآن الكريم ، أم في السنة الشريفة ليتمكن الفقيه من الاستفادة منها في الوصول للمقصود من البيانات الشرعية وذلك موقوف على وضع النصوص الشرعية ضمن حدود وملابسات صدها ، وملاحظة الأعراف العامة أو الخاصة في ذلك ، مما يُعين كثيرا في فهم المراد الشرعي على حقيقته .

فيلزم الفقيه الإحاطة بأسباب النزول عند الاستدلال بآيات القرآن الكريم ، وملاحظة الظروف المحيطة بصدور النص الشرعي إذ كثيرا ما يراعي المشرع المصالح العامة أو الخاصة ولو بسبب عدم صلاحية الظروف أو قصور قابلية المباشر للسؤال عن استيعاب واقع الحكم الشرعي ، أو نحو ذلك مما يدركه المشرع الأعظم المعصوم عن الخطأ والغفلة ، والعالم بالمصالح الخاصة والعامة . فكم من الموارد التي يعثر عليها المنتبِع التي لم يعرف المقصود منها حين صدورها إلا أنها أصبحت جلية واضحة بعد ذلك ، ولو بسبب الجمع بين النصوص .

وهذا لا يعني أن يلتزم الفقيه بأن المورد يخصص الوارد ، أو اختصاص الأحكام بعصر الصدور فقط ، فإن ذلك باطل جزما لعدم اختصاص الشريعة الإسلامية وهي خاتمة الشرائع السماوية بمعاصري المعصومين ﷺ أو بالمباشرين للسؤال والجواب ، بل يشمل جميع المكلفين في جميع العصور . إلا أن تكون القضية شخصية فإنه لا بد من الاقتصار فيها على موردها ، ومع ذلك قد يفهم الفقيه أحيانا من الأجوبة الشخصية عدم الخصوصية بنحو

يكون الحكم عاما في واقعة ، وإن كان مورده شخصا . ويعرف ذلك بكثرة الممارسة للأحاديث الشريفة ، وكلمات الفقهاء بنحو يكسب الفقيه ذوقا فقيها وسليقة سليمة تعينه على حسن الاستفادة من النصوص الشرعية في مختلف الموارد .
٨ . استيعاب الفحص في مظانه المعدة له عما قد ينافي الظهور الأولي للبيان الشرعي مما يصلح أن يكون مبينا للمراد منه ، ولو بملاحظة بعض القرائن النوعية أو الشخصية . فمثلا : يقدم الخاص على العام ، والناسخ على المنسوخ والحاكم على المحكوم سواء كان بنحو التوسعة أو التضييق نظير ما ورد من أن (التراب أحد الظهورين) ، الموجب للتوسعة في رفع الحدث بما يشمل الماء والتراب في الطهارة الحديثية ، أو أن الفقاع خمر استصغره الناس ، المقتضي لترتيب جميع الأحكام الثابتة للخمر على الفقاع ، أو مثل ما ورد من أنه (لا ربا بين الوالد وولده) ، المقتضي لإخراج المعاملة الربوية بين الوالد وولده عن عموم أحكام الربا . وكذا ما ورد من أنه (لا رضاع بعد فطام) - المحدد في بعض النصوص بسنتين - الموجب لقصر أحكام الرضاع على الواقع ضمن السنتين الأوليين من عمر الرضيع ، وإن كان مفهوم الرضاع أعم من ذلك .

وهكذا الحال في تقديم الدليل المسمى بالوارد - باصطلاح الأصوليين - على الدليل المورد ، الذي يتفق مع الخروج التخصصي في النتيجة وإن لم يكن بلسان التخصص ، نظير : [تقدم البيان الشرعي ، الذي قامت الحجة على اعتباره - وإن لم يفد العلم الوجداني - على القاعدة العقلانية المعروفة المعبر عنها بقاعدة (قبح العقاب بلا بيان)] ، فإن ظاهر التعبير بالبيان فيها هو البيان الموجب للعلم الوجداني . إلا أنه بعد قيام الدليل على جواز الاعتماد على مؤدى الحجة الشرعية لم يكن علما حقيقيا ، لا يبقى موضوع للقاعدة المذكورة ببركة التعبد الشرعي وهذه الأبحاث ونحوها قد أشبع البحث فيها في مؤلفات ودروس أعلام مدرسة النجف الاشراف الحديثة التي بلغت أوجها في دور التكامل العلمي كما سبق الإشارة إليه عند الحديث عن تاريخ وتطور الفقه الإمامي .



٩ . عند استحكام التعارض بين النصوص يتعين البحث عن المرجحات المعتمدة في ذلك سواء منها ما يرجع إلى تنقيح الصدور كالترجيح بالأوثيقة ، أو العدالة ، أو الشهرة ، في مقابل الشاذ النادر ، أو ما يرجع إلى المضمون كالترجيح بموافقة الكتاب والسنة ، أو مخالفة العامة على موافقتهم أو نحو ذلك ومع عدم المرجح يتعين التساقل أو التخيير كما هو محرر بالتفصيل في مباحث تعارض الأدلة من أصول الفقه .

هذا ولا يخفى أنه ليس المراد بالعامّة الذي تكون مخالفتهم موجبة للترجيح خصوص أئمة المذاهب الأربعة المعروفة فإن بعضهم لم يكن موجودا زمن صدور بعض روايات الترجيح المذكورة ، لأن قسما منها مروى عن الإمام جعفر بن محمد الصادق ﷺ المتوفى عام (١٤٨ هـ) أي قبل ولادة الشافعي بعامين فضلا عن أحمد بن حنبل المولود بعد ذلك بكثير . بل المراد بهم الفقهاء الضالعون في ركاب حكام الجور والظلم ، الذي استولوا على إدارة شؤون الأمة الإسلامية بالقهر والخذاع مما لا تفرقه الشريعة الإسلامية الغراء كحكام بني أمية أو بني العباس ممن كانوا لا يتورعون في الفتيا ، بل همهم الأول والأخير إرضاء الحكام وموافقة أهوائهم ، وإن كانت على خلاف المسلم به من الأحكام الشرعية ، وأدنى مراجعة لأحوال أمثال هؤلاء المدعين للفقه ، أو الذين لم يراعوا الحقائق الشرعية ، أو الطرق المرضية شرعا في مجال الاستنباط من دون وازع من دين أو ضمير ، تكشف عن صحة ما ذكرناه . وقد أطب شيخنا الأميني ﷺ في غديره في استعراض ذلك فراجع .

١٠ . أما التعارض بين الأدلة المختلفة فالمرجع فيه قواعده المقررة في أصول الفقه . وقد اشرنا إلى كيفية تقديم بعضها على بعض في موارد الجمع العرفي بين الأدلة أو بنحو الحكومة أو الورد . ولا مجال لاستعراض ذلك ، فإنه واحد من أهم مباحث علم أصول الفقه وقد تبلور كثيرا على أيدي أبحاث الشيخ الأعظم المجدد الأنصاري ﷺ ، ومن جاء بعده من أعلام العصور الحالية .

وهذا ما يميز - بوضوح - سعة آفاق مدرسة النجف الاشراف

الفقهية والأصولية عن غيرها من مدارس المذاهب الإسلامية . ويمكن تلمس مصداق ذلك بملاحظة ما كتبه الأستاذ المحقق السيد محمد تقي الحكيم في مؤلفه القيم (الأصول العامة للفقه المقارن) الذي استعرض فيه جملة من الأدلة التي قد تعتمد عليها مدارس فقهية أو أصولية غير مدرسة أهل البيت ﷺ ، في حين يكون غيرها مقدما عليها بحسب القواعد العلمية الفنية . فراجع وتأمل جيدا .

التعريف بالأصول العملية

١١ . إن أهم مميزات مدرسة النجف الاشراف الأصولية - من عصر المحقق الاردبيلي إلى العصر الحالي - وما يتبعها من مدارس للفقه الإمامي هو تركيز البحث وتحليلته على عدة قواعد مستقاة من النصوص الشرعية أو الأحكام العقلية والعقلانية تكون متأخرة في الرتبة عن النصوص الشرعية ، فلا بد أن تكون هي المرجع لتعيين الوظيفة المبتلى بها ، أو المتوقع لها ذلك عند عدم تعرض النصوص الشرعية أو ما يقوم مقامها - كالإجماع والشهرة وبناء العقلاء - بناء على حجيتها كما هو محرر بالتفصيل في أصول الفقه وهذه القواعد تسمى - باصطلاح علماء الأصول والفقه المتأخرين - بالأصول العملية وعمدتها : الاستصحاب والبراءة والاحتياط والتخيير . إذ المستفاد منها - كما هو محرر في محله - أن موضوعها الشك ، الشامل لصورة الظن بأحد الطرفين أحيانا ولم يرقم على اعتباره دليل علمي قطعي ، وبتعبير أدق : أن موضوعها عدم الدليل الشرعي أو العقلي المعتبر على المعذرية أو المنجزية .

فالاستصحاب - مثلا - مفاده البناء على مقتضى اليقين السابق عند الشك اللاحق ، مع فرض بقاء اليقين بحاله في الزمان السابق ، وهو ما يعبر عنه - بمصطلح الأصوليين - بأن لا يكون الشك ساريا ، فلا يعتني باحتمال تبدل الحكم أو الموضوع في الزمن اللاحق مع الشك في بقائه ، بعد فرض ثبوت أحدهما في الزمن السابق ، فمن تيقن الطهارة عند الزوال ، وشك في ارتفاعها بعده ، لا يعتني بشك بل يرتب آثار الطهارة ، وإن لم يكن متيقنا بها فعلا .

إلا أنه لو قامت البيئنة - مثلا - المفروض حجيتها شرعا - على انتقاض الطهارة ، يلزم رفع اليد عن اليقين السابق وعدم

ترتيب آثاره في ذلك الحال وإن لم تكن البيئة مفيدة للعلم فإن هذا هو مقتضى تقدم مفاد دليل اعتبار البيئة وحجيتها على مفاد دليل اعتبار الاستصحاب لحكومته عليه ، مع أن الدليلين بحسب النظر الأولي في مرتبة واحدة لأن مستند الاستصحاب مضمون حديث زرارة ونحوه عن الإمام الصادق عليه السلام : (لا تنقض اليقين بالشك ، لكن تنقضه بيقين مثله) . ومستند حجية البيئة حديث مسعدة بن صدقة عن الإمام الصادق عليه السلام أيضا : (والأشياء كلها على ذلك حتى يستبين لك غير ذلك أو تقوم به البيئة) .

إلا أن المستفاد من مجموع الأدلة عموم الوارد من اليقين في دليل الاستصحاب لما يشمل مورد قيام الحجية الشرعية فمن وجودها . على خلاف مقتضى اليقين السابق يتعين رفع اليد بها عن مقتضاه في الزمان اللاحق وإن لم يبلغ ذلك مرتبة العلم اليقيني ، وهذا بعينه يجري في الأصول الباقية كما هو محرر بالتفصيل في مباحث أصول الفقه .

١٢ . الإحاطة التامة بمسألة التحسين والتقيح العقليين المبني عليها التلازم بين حكم العقل وحكم الشرع ، ولو بنحو الإيجاب الجزئي في مقابل السلب الكلي وما يتفرع عليها من مباحث أجزاء الأمر الاضطرابي الثانوي عن الأمر الأولي أو الظاهري عن الواقعي ، واقتضاء النهي عن العبادة أو المعاملة فساد متعلقه ، وإمكان اجتماع الأمر والنهي وعدمه ، وتبعية المقدمة لذاتها في الوجوب أو الحرمة ، وما يتفرع عليها من أبحاث استوعبت البحث فيه مدرسة التجف الاشرف الحديثة في مباحث الملازمات العقلية في علم أصول الفقه .

فإن الفقيه لا بد أن يكون على بصيرة تامة بأمثال هذه المباحث ، وما يتفرع عنها ، لتوقف استنباط الحكم الشرعي عليها في بعض الموارد

نماذج من عملية الاستنباط

فمثلا : لو كان المكلف مالكا للزاد والراحلة وقادرا على أداء مناسك الحج عد مستطعا فيجب عليه الحج في عام الاستطاعة فلو كان نفس المكلف مستأجرا قبل تحقق استطاعته طيلة عشر

سنين على زيارة الحسين عليه السلام بنفسه في يوم عرفة فإنه إن سافر إلى مكة للحج لم يستطع الوفاء بمقتضى عقد الإجارة ولو وفي بالإجارة لم يستطع القيام بأداء شعائر الحج المقدسة والتي من أركانها الوقوف بعرفة التاسع من ذي الحجة فهل يتقدم مقتضى عقد الإجارة على الحج؟ لتقدمه على زمان الاستطاعة ، والتي هي شرط في وجوب الحج فيكشف عدم كونه مستطعا في الواقع ، وإن كان مالكا للزاد والراحلة وقادرا على أداء الشعائر في المشاعر المقدسة باعتبار إن المعجز المولوي الشرعي كالمعجز العقلي الخارجي ، فيكون نظير فاقده الاستطاعة المالية أو البدنية .

أو يتقدم وجوب الوفاء بالحج على وجوب الوفاء بمقتضى عقد الإجارة؟ لأهمية الحج من الإجارة الكاشف ذلك عن لزوم رفع اليد عن وجوب الوفاء بعقد الإجارة على زيارة الحسين عليه السلام في سنة الاستطاعة وبعبارة أخرى : أنه يلزم على المكلف الوفاء بمقتضى عقد الإجارة لزم بحكم العقل تقديم الأهم على المهم فيكون مفاده : وجوب زيارة الحسين عليه السلام في غير عام سفره للحج .

وهذه المسألة وأمثالها من مسائل هذه الأبواب مورد بحث الفقهاء ولكل رأيه المدعوم بالحجج التي يراها أحق بالاعتماد . ولتضرب للقرائن الكريم مثلا آخر يتوقف الحكم فيه على نتائج أحد هذه المباحث المتقدمة ، فإن المكلف لو طلع عليه الفجر مأمورا بالوضوء والصلاة فلو لم يكن عنده ماء مباح في أول الوقت إلا أنه يتمكن من الحصول عليه بعد نصف ساعة مثلا فإنه لا يجوز له المبادرة للصلاة في أول وقتها بالوضوء بالماء المغصوب لأن شرط صحة الوضوء إباحت الماء مع قصد التقرب من المولى ، وحيث أن استعمال الماء المغصوب محرم شرعا ، فلا يمكن التقرب من المولى بالوضوء فيقع منهيها عنه وحيث أن النهي عن العبادة يقتضي فساده لا امتناع التقرب بالمبعد فلا يصح الوضوء في هذا الفرض ، وإذا بطل الوضوء بطلت الصلاة المشروطة به ، فلا يجوز للمكلف المبادرة لصلاة الفجر في أول وقتها بل يجب عليه الانتظار حتى يتمكن كما هو المفروض من



تحصيل الماء المباح ، وهذا ما يتكفل به مبحث اقتضاء النهي عن العبادة الفاسدة .

نعم لو فرض انحصار الماء الموجود عند المكلف بالمغصوب بنحو لو انتظر لم يحصل على الماء المباح ليتوضأ به ، فإنه حيث كان التراب شرعا عدلا للماء في حصول الطهارة بالتييم به لكنه ليس على إطلاقه بل في حال العذر وهو عدم وجدان الماء الشامل للفرض ، فيكون معذورا عند عدم استعمال الماء المغصوب في تحصيل الطهارة من الحدث؛ فينتقل إلى بدله الاضطراري وهو الطهارة الترابية من الحدث بالتييم غاية الأمر أن جواز المبادرة لأداء الصلاة بالطهارة الترابية مراعى باستيعاب العذر للوقت .

كما أنه لو تمكن بعد طلوع الشمس من الحصول على الماء المباح فهل يجب عليه قضاء الصلاة المذكورة حينئذ؟ أو يحكم بإجزائها ، وعدم الحاجة للقضاء؟ بل قد يقال بعدم طلوع الشمس من الحصول على الماء المباح فهل يجب عليه قضاء الصلاة المذكورة حينئذ؟ أو يحكم بإجزائها وعدم الحاجة للقضاء؟ بل قد يقال بعدم وجوب الإعادة في الوقت أيضا بمعنى أن المكلف لو كان يائسا من الحصول على الماء بين الطلوعين فتيمم وصلى ، وبعد ذلك حصل على الماء المباح فإنه يكتبي بما وقع منه من الصلاة عن تيمم اعتمادا على تجويز الشارع المبادرة للصلاة بل حثه على الإتيان بها في أول وقتها يكشف عن اكتفائه بالطهارة الناقصة . والمتكفل بالبحث عن نظائر هذه المسألة وفروعها مبحث الإجزاء كما هو محرر بالتفصيل في علم أصول الفقه .

ومنه يتضح لزوم اعتماد الفقيه على جمل من المقدمات التي لا بد أن يفرغ عن تحقيقها ليتمكن من الوصول للتوظيفة الفعلية في حق نفسه أو من يرجع إليه في الوقائع التي يبتلى بها أو يتوقع ابتلاؤهم بها وهي تختلف فيما بينها من حيث الدقة وتيسر الوصول إلى نتائجها ليخرج بذلك عن حد التقصير في إسناد مؤدى اجتهاده إلى الشارع الأقدس لينجو من الهلكة ، وإلا كان مقصرا غير معذور وإن أصاب الواقع كما

هو صريح الحديث المشهور عن الإمام الصادق عليه السلام : (القضاء أربعة : ثلاثة في النار ، وواحد في الجنة ، رجل قضى بجور وهو يعلم فهو في النار ، ورجل قضى بالحق وهو لا يعلم فهو النار ، ورجل قضى بالحق وهو يعلم فهو الجنة) ^(١) . وقد لا يحتاج الفقيه في مقام الاستنباط إلا إلى بعض هذه المقدمات كما لو شك في حال ماء قليل لم يعلم ملاقاته للنجاسة فإنه يكفي بالرواية المشهورة المروية بعدة طرق عن الإمام الصادق عليه السلام : قال : (الماء كله طاهر حتى يعلم أنه قذر) ^(٢) . فإن شهرة الرواية تغني عن البحث في رجال السند كما أن ظهورها العرفي واضح وتام يشمل بعمومه مورد السؤال نعم لا بد من كون معنى (القذارة) في الرواية الشريفة هو النجاسة كما هو المفهوم منها عرفا وحيث أنها مشكوك فيها بحسب الفرض يحكم الفقيه بعدم نجاسة الماء القليل المشكوك ملاقاته للنجاسة .

وكذا يتيسر للفقيه معرفة حكم الغدر في الشريعة الإسلامية من مثل حديث الأصمغ بن نباتة عن أمير المؤمنين عليه السلام : (لولا كراهية الغدر لكنت أدهى الناس . ألا إن لكل غدره فجرة ولك فجرة كفره ألا وإن الغدر والفجور والخيانة في النار) ^(٣)

وكذا معرفة حكم استعمال ماء أحد الإناءين المعلوم إصابة النجاسة لأحدهما معتمدا على مثل حديث سماعة : قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام يعني الإمام الصادق عن رجل معه إناءان فيهما ماء وقع في أحدهما قذر لا يدري أيهما هو ، وليس يقدر على ماء غيره قال يهريقهما جميعا ويتيمم ^(٤) . فإنه بعد ثبوت حجية خبر الثقة عنده ، لا يتوقف في الحكم بحرمة الغدر ، وعدم صحة الوضوء في المثال لوضوح النص وعدم الحاجة إلى سلوك مقدمات دقيقة .

بل قد يحكم بذلك - في المثال الثاني - حتى لو لم يكن لديه مثل النص المذكور ، لاستقلال العقل وبناء العقلاء ، على أن العلم الإجمالي كالعلم التفصيلي في لزوم ترتيب جميع آثاره ، كما هو محرر في مباحث القطع من أصول الفقه .

(١) الوسائل ج : ١٨ : ص : ١١ .

(٢) الوسائل ج : ١ : ص : ١٠٠ .

(٣) الوسائل ج : ١١ : ص : ٥٢ .

(٤) الوسائل ج : ١ : ص : ١٣١ .

بعض النماذج الفقهية المعقدة

وقد تكون الواقعة المبتلى بها أكثر تعقيدا، لكونها موردا لانطباق عدة قواعد متنافية ويحتاج تقديم بعضها على غيره إلى دقة وجهد كبير فمثلا لو ضاق وقت صلاة الصبح بنحو يحتمل المكلف -احتمالا معتدا به - أنه عند إتيانه بالطهارة المائية لا يتمكن من إيقاع ولو ركعة من الصلاة قبل طلوع الشمس، بخلاف التيمم .

فإن مقتضى استصحاب الزمان بقاء الوقت المقتضي لزوم الإتيان بالطهارة المائية، وهو مقدم بحسب قواعد الجمع بين الأدلة على الاحتياط، فلا يسوغ معه - بدوًا - للمكلف الاكتفاء بالصلاة عن تيمم محتجا بضيق الوقت إلا أن مختار جمع من الأعلام المتأخرين لزوم التيمم وعدم الاعتماد على مقتضى الاستصحاب المذكور لكون المورد من صغريات الشك في القدرة على الامتثال المقدم على الاستصحاب إذ لا يحرز مع الشك المذكور القدرة على الإتيان بالصلاة في وقتها عند الإتيان بالطهارة المائية بخلاف الإتيان بها مع الطهارة الترابية فيكون الاحتياط - في الفرض - مقدما على الاستصحاب بحسب المرتكزات العقلانية، التي هي المرجع في تقديم بعض القواعد على غيرها، فيجب على المكلف الإتيان بالصلاة عن تيمم، ولا يجوز الإتيان بالطهارة المائية .

واليك مثلا آخر قد يكون أكثر تعقيدا وتحتاج معرفة حكمه إلى نحو من الدقة في إعمال القواعد المقررة، فلو باع المالك داره من شخص وأجرها وكيله على آخر، واقترب البيع والإجارة زمانا، فهل يبطل العقدان معا أو يصحان معا؟ أو تبطل الإجارة ويصح البيع مسلوب المنفعة مدة الإجارة ويكون المشتري بالخيار؟ أو يصحان معا ويكون للمشتري الخيار؟ وجوه .

ومنشأ التردد أن المرتكز عند العقلاء تبعية المنافع للعين في الملكية فعندما يبيع المالك العين تنتقل معها ملكية المنافع إلى المشتري أيضا كما أن عقد الوكيل حيث كان عرفا وشرعا كعقد الأصيل في جميع الآثار المترتبة على أعماله وكالته، فمع فرض

إجارته للدار، فاللازم صحة عقده، وامتلاك المستأجر لمنفعتها مدة الإجارة مقابل العوض المتفق عليه .

وفي صورة اقتران العقدين في الزمان يقع التزاحم بين اثر كل من البيع والإجارة بالنسبة لمنفعة الدار فإن مقتضى البيع انتقال ملكية المنفعة للمشتري ومقتضى الإجارة انتقالها للمستأجر فأيهما أولى بالتقديم؟ .

وجه بطلان العقدين معا هو التنافي المذكور بين مقتضاهما فكان المشتري عندما أقدم على بذل الثمن فإنما بذله في مقابل العين ومنفعتها معا . وكذا البائع ومع تخلف المقصود يفقد عقد البيع ركنه الأساسي وهو القصد، وإنما تبطل الإجارة بسبب منافاتها لمقتضى البيع كما عرفت .

وأما وجه صحة العقدين معا، فلأن البيع ينصب أولا وبالذات على نفس العين، وتتبعها منافعتها، فمع وقوع البيع من مالك الدار يلزم الحكم بصحة البيع كما أن المفروض أهلية الوكيل لإجراء عقد الإجارة المقتضى لترتيب آثاره عليه، وعمدتها ملكية المنفعة، فلا مانع من صحة الإجارة أيضا .

وأما وجه بطلان الإجارة وصحة البيع مسلوب المنفعة مدة الإجارة مع ثبوت الخيار للمشتري فهو أن كلا من المالك ووكيله مسلمان على تملك المنفعة غاية الأمر أن المالك ينقلها إلى المشتري بتبع نقل العين وينقلها الوكيل للمستأجر بالمباشرة . وحيث أنه لا مرجح لتقديم تصرف المالك على تصرف وكيله يستحكم التزاحم، ومع عدم المرجح يسقطان معا عن التأثير، فلا تنتقل المنفعة لا بالأصالة، ولا بالتبع، وأما نقل العين من المالك للمشتري، فلا مزاحم له بحسب الفرض، لإمكان التفكيك عرفا بين نقل العين ونقل منافعتها، غاية الأمر يكون المشتري بالخيار، لأنه إنما دفع الثمن مقابل العين ومنافعتها ولو بالتبع - فمع فرض عدم انتقال ملكية المنافع إليه، يكون له خيار تبعض الصفة أو نحوه من الخيارات .

وأما وجه صحة العقدين معا وثبوت الخيار للمشتري فلأن ملكية المنفعة بالبيع إنما هي بالتبع وانتقالها بالإجارة بالأصالة وهو يكفي في الترجيح بنظر العقلاء فلا يستحكم التزاحم بين



مقتضى العقدين كما ذكر في الثالث . وأما ثبوت الخيار للمشتري فهو على القاعدة كما عرفت إلى غير ذلك من الأمثلة الفقهية في الموارد .

وهنا تظهر مهارة الفقيه، فكلما كان دقيقا في مبانيه وفي تطبيق تلك المباني والقواعد على الفروع كان هو الأفضل والأعلم وهذا هو الميدان الفسيح للإبداع الفكري والجهد العلمي الذي يتسابق فيه فرسان الفقه وعلماءه وتتفاوت فيه قدراتهم كل حسب قوته واستكمال أدواته وعمق وسلامة مبانيه الأصولية والفقهية ومن ثم قد يظهر تفوق بعض العلماء في بعض الأبواب وغيره في غيرها . وقلما تجد فقيها محلقا ومتفوقا في جميع أبواب الفقه .

ولا يخفى أن للعناية الإلهة والتسديد الرباني اليد الطولى في فتح آفاق الفكر السليم وتيسير السبل للفقيه للوصول إلى الحقائق، فكلما كان الدافع القربي من الله سبحانه وتعالى للفقيه قويا؛ كلما كان التسديد أكثر فهما يسيران بحسب ما نعلمه من سير حياة الفقهاء - في قرن وفي خط واحد، ونستجير بالله من العكس، إنه سميع مجيب وهو حسبنا ونعم الوكيل .

شواهد على شمول الفقه لجميع مناحي الحياة

ومما تجدر الإشارة إليه هو سعة أبواب الفقه الإسلامي عامة، والفقه الامامي خاصة، الشاملة لمناحي الحياة، وكافة الجوانب الفردية والاجتماعية، ومن ثم تشعبت فروع الفقه، فمنها:

١- ما يختص بأبواب العبادات الراجعة لشخص المكلف كأحكام الطهارة من الخبث، والحدث، والصلاة، والصيام، ونحوها .

٢- ما يشمل مع غيره من المكلفين، كالحج والزكاة والخمس والوقف والكفارات ونحوها .

٣- ما يرجع إلى تنظيم الحياة الأسرية كالزواج والطلاق والتفقات وأحكام الأولاد والإرث والوصايا ونحوها مما اصطلح عليه حديثا بقانون الأحوال الشخصية .

٤- ما يرجع إلى تنظيم المجتمع الإسلامي كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأغلب ما يجره الفقهاء في أبواب المعاملات

كالبيع وخياراته والإجارة والشركة والمضاربة والمزارعة والمساقاة والقرض والضمان والحوالة والصيد والذباحة إلى غير ذلك من الأبواب وأحكامها وهو يقرب مما يسميه فقهاء القوانين الوضعية بالقانون المدني .

ومن يقارن بين آراء فقهاء الأمة الإسلامية وفقهاء القوانين المدنية الوضعية - خصوصا الغربية منها التي تعتبر قمة الفكر القانوني الوضعي الحديث يعرف فضل فقهاءنا عليهم السلام، وسبقهم بمئات السنين لأحدث النظريات الغربية في العلاقات العامة والخاصة، مستضيئين في ذلك بتعاليم الإسلام: دين البشرية الخالد، الذي جاء به سيد البشرية ومنقذها من الضلال الرسول الأعظم عليه السلام قبل أكثر من أربعة عشر قرنا من الزمان . ولا يتسع المجال لاستعراض بعض الأحكام الإسلامية مقارنة بالفقه الغربي . وقد تصدى لقسم من ذلك بعض أساتذة جامعات الحقوق في عدد من البلاد الإسلامية كالأستاذ عبد الرزاق السنهوري^(١) من مصر والأستاذ عبد المجيد الحكيم من العراق وغيرهما من غيرهما .

٥. ما يرجع إلى إقامة الحدود وقطع دابر العدوان كعقاب الجناة على الدماء والأعراض والأموال والحقوق العامة والخاصة بالقصاص أو التعزير أو بالدية أو بالضمان أو نحو ذلك، وهو المصطلح عليه حديثا بالقانون الجنائي .

٦. ما يرجع إلى علاقة المجتمعات الإسلامية بغيرها، وهي المسماة بالسياسات كأحكام الحرب والسلام والصلح ونحوها وهي المصطلح عليها حديثا بالعلاقات والمواثيق الدولية إلى غير ذلك من الأبواب والأحكام الفقهية التي يشهد أعداء الإسلام والمسلمين فضلا عن الأولياء بمدى الجهود الجبارة التي بذلها فقهاء الإسلام عموما وفقهاء الشيعة الإمامية خصوصا، مما يعد غرة في جبين الفكر الإسلامي، بل الإنساني أجمع .



(١) هو الدكتور عبد الرزاق احمد السنهوري رجل قانون مصري اهم واشتهر فقهاء القانون وعلمائه العرب وبعد الاب التاريخي للعديد من التشريعات القانونية العربية . ولد عام (١٨٩٥م) .